الإصدار: 82



الحوار في الإسلام

د. ياسر أحمد الشمالي





الحوار في الإسلام
منهج وثقافة

أ.د. ياسر أحمد الشمالي

الإصدار: 82 (فبراير 2014م / ربيع أول 1435هـ)

الإخراج الفني : محمود محمد أبو الفضل

أ.د. ياسر أحمد الشمالي

من مواليد الأردن، حاصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه في الحديث وعلومه، يعمل أستاذا بكلية الشريعة بجامعةالكويت.

له مؤلفات عديدة، منها: «مناهج المحدثين»، و«جمع المفترق من الحديث النبوي وأثره ..»، و«الواضح في فن التخريج ودراسة الأسانيد»... وغيرها، إضافة إلى العديد من البحوث والدراسات المنشورة بالمجلات والدوريات المحكمة.



نهـر متعــدد... متجــدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة – رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (965+) – فاكس: 22445465 (965+)

نقال: 99255322 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

الطبعة الأولى - دولة الكويت

أغسطس **2014** م / رمضان **1435**هـ

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
الموقع الإلكتروني: **www.islam.gov.kw**

رقم الإيداع بمركز المعلومات: **114 / 2013**

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: **2013 / 202**

ردمك: **978-99966-50-89-5**

فهرس المحتويات


بسم الله الرحمن الرحيم



تصدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

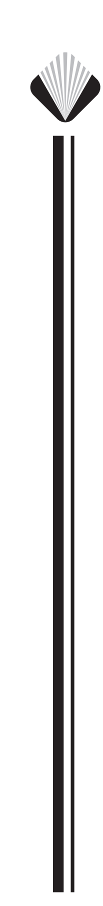
فبالنظر إلى أن الإسلام دين يقيم سلامة اعتقاد الناس على حريتهم وإرادتهم، بعيدا عن مختلف أشكال الإكراه والإرغام، فإنه من البدهي أن يعتني بالحوار، ويدعو إليه، ويضع له آدابا وشروطا، ويحدد له غايات ومقاصد، ويجنبه الموانع والعراقيل.

وقد جاءت هدايات القرآن الكريم وسيرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام داعية إلى حسن الحوار والجدال والإنصاف، وتجنب المراء والادعاء والتعصب، وقدمت الحضارة الإسلامية نماذج في إدارة الحوار الفعال مع مختلف الأديان والملل والطوائف، دون أن تضطر إلى استعمال وسائل الإكراه والإجبار والتعصب، لأنها تنتمي إلى دين لايقبل قيام المعتقدات على الإكراه والتقليد.

وقد سعى الباحث ياسر أحمد الشمالي في كتابه «الحوار في الإسلام» إلى أن يعرض لأهمية الحوار وفلسفته وآدابه وشروطه وعوائقه، مع التأصيل له من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية، إضافة إلى إبراز دوره في إضعاف مقولة الصراع الحضاري في العلاقة بين المسلمين وغيرهم من الحضارات المعاصرة.

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم هذا الكتاب إلى جمهور القراء الكرام والمهتمين بقضايا الحوار الحضاري ، إسهاما منها في التأصيل للمفاهيم الإسلامية في زمن البلبلة الثقافية، سائلة المولى أن ينفع به، وأن يجزي مؤلفه خير الجزاء...

إنه سميع مجيب الدعوات...



مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلم على النبي الأمين، المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد وجدت أن الحاجة ماسة لدراسة تبين أصالة الحوار في الفكر الإسلامي، وأن مصادر التشريع، وهي الكتاب والسنة، قد أولت ثقافة الحوار عناية فائقة ليكون منهج حياة وأسلوباً حكيماً في التعامل بين الناس.

وتأتي أهمية التركيز على ثقافة الحوار لما لها من أثر بالغ في ترشيد الوعي، وترسيخ العقلانية، وأدب الخلاف، وحاجتنا الماسة لنكون أمة واحدة مع اختلافنا، وتعزيز المبدأالذي ينص على أن «اختلاف الرأي لا يفسد الود والأخوة..»

الاختلاف أمر فطري:

فالاختلاف بين البشر حقيقة فطرية، وقضاء رباني مرتبط بالابتلاء والتكليف الذي تقوم عليه الخلافة في الأرض قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ المائدة: ٤٨

فالاختلاف أمر متوقع في هذه الأمة وفي كل الأمم: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (هود: ١١٨) والحوار يتلاءم مع هذه الفطرة وينسجم معها، حيث يعالج قضية الاختلاف من خلال كشفه عن مواطن الاتفاق ومثارات الاختلاف؛ لتكون محل بحث وجدال بالتي هي أحسن لمعرفة ما هو أقوم للجميع.

الحوار طريق الوحدة الاجتماعية:

وثقافة الحوار سلاح ناجع في القضاء على التباغض والتدابر والتناحر الناشيء عن الاختلاف المذموم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ

رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٤٦) وقد حرص الإسلام كثيرا –بعد التوحيد–على وحدة الأمة واجتماعها ونبذ الفرقة، ومن فضل الله تعالى على هذه الأمة أن جعلها أمة واحدة عزيزة ذات سيادة، بعد فرقة وضعف وبعد وثنية سخيفة وأخلاق جاهلية، قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

لهذا فإن من الأولويات المهمة الملقاة على عاتق الدعاة وأهل العلم والمثقفين بذل الجهد في نشر الوعي والدعوة للرجوع إلى وحدة الكلمة والصف وبناء الهوية وسلامة الفكر والعقيدة

الكتاب والسنة مصدر المعرفة والوعي:

ولما كان منهج الحوار أسلوباً حكيماً وطريقاً صحيحاً للوصول إلى المعرفة وبناء الوعي وإحقاق الحق وتعزيز التواصل والتعايش المبني على الثقة المتبادلة واحترام الآخر، كانت الحاجة ماسة للرجوع إلى المنابع الصافية من القرآن الكريم والسنة النبوية وتلمس ما فيهما من الهدى والنور يضيء السبيل ويوضح المنهج.

لذا فإن من المهم معرفة هدي الإسلام في ترسيخ أسس الحوار ليكون منهجا وثقافة لدى المسلمين في تعاملهم مع أنفسهم أو غيرهم وتجلية ذلك من خلال دراسة موضوعية استقرائية تحليلية في مصادر المعرفة الأساسية في الإسلام وهي: الكتاب والسنة اللذان يشكلان أساس المعرفة ومشعل الهداية وطريق الفلاح ومصدر الحق والخير، ثم أعراف الناس الصحيحة وتجاربهم الحكيمة وخبراتهم المكتسبة

فقد وصف الله تعالى كتابه في أكثر من آية بأنه (هدى للمتقين)، وأنه (هدى للناس)، وقال الله تعالى:﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٩) ، وقال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: ١).

والرسول الكريم ﷺ هو القدوة في كل شيء ولكل الناس ممن يبحث عن السداد في القول والعمل:﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢١).

فهو الذي أنار الدرب لهذه الأمة وأضاء ليلها وبلغها دينها وشهد عليها بعد أن بشرها وأنذرها بكل الوسائل والأساليب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٤٥-٤٦)

أما السنة النبوية:

فقد ثبت عن النبي الكريم ﷺ أن التمسك بسنته عاصم من الضلال والفتن حيث قال: (**إنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ**)[١] .

وقال: (**من رغب عن سنتي فليس مني**)[٢].

ويظهر لكل دارس وباحث أن سنته عليه ﷺ تشتمل بوضوح على منهج الحوار في الدعوة والتربية والتشريع، فجدير بنا أن ننهل منها ونستخرج كنوزها.

١ - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب٥ ، تحقيق الدعاس، ط١، والدارمي في المقدمة ، حديث رقم ١٦، وأحمد في المسند ، ج٣/٣١٠، ج٤/٢٦، والحاكم في المستدرك على الصحيحينج١/٩٦، وقال صحيح على شرط الشيخين، وهو حديث صحيح شواهده متعددة.

٢ - صحيح مسلم، تحقيق عبد الباقي، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح..ج٢/١٠٢٠ حديث رقم ١٤٠١.

الحاجة إلى ثقافة الحوار:

إن الوصول إلى الحق يحتاج إلى عقلانية وتفهم وإرادة، وبالتالي فإن حمل الناس على الحق الذي نعتقده يحتاج إلى حوار حقيقي، ثم احترام حق الآخر في أن يختار ما يراه صواباً، وقد أكد القرآن الكريم احترام اختيار الآخر بقوله تعالى:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ (البقرة:٢٥٦) ، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩) ، وقوله: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ (الكهف: ٢٩).

وبعد ذلك يواجه كل إنسان نتيجة اختياره في الدنيا والآخرة ونحن في هذا العصر بأمس الحاجة إلى تفعيل الحوار والخطاب العقلاني بيننا وبين غيرنا لتحقيق الهدف من اختلاف الناس في أعراقهم وعقائدهم ولغاتهم وهو التعارف والتعايش السلمي: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات: ١٣).

وأزمة المسلمين في هذا الوقت هي أزمة فكرية أخلاقية، والخروج منها بسلامة يحتاج إلى معالجة صادقة واعية لمناهج التفكير والعلاقة مع الآخر وتربية الجيل على ذلك، بدل أن نبقى مجرد مستهلكين للأفكار والسلوكيات المستوردة، مع أن الله تعالى أراد لنا أن نكون ﴿ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

فمن الواجب إذاً بيان منهج القرآن في الحوار وكذا المنهج النبوي، واستنباط أسس الحوار وآدابه، وبيان أثره في الدعوة والتربية والتعليم، وفي بناء أسس التعايش بين البشر، ثم إلقاء الضوء على معوقات الحوار وسبل التغلب عليها.

وهذه الدراسة تهدف إلى:

- بيان فضل الإسلام في ترسيخ مبدأ الحوار الهادف الموصل للحق
- الإسهام في جعل الحوار منهجا وثقافة متأصلة في كيان المسلم وحياته باعتباره الأسلوب الأمثل للتواصل بين الناس.
- بيان أن نصوص الكتاب والسنة وظّفت الحوار كثيرا للخطاب وإيصال المعلومة المهمة بطريقة مشوقة مقنعة.
- بيان مدى إسهام أسلوب المحاورة في الهداية والإصلاح، وأنه منهج الأنبياء في دعوة أممهم، ثم هو وصية اللّه تعالى إلينا في كيفية التعامل مع الآخرين
- إن اعتماد القرآن والسنة النبوية على الحوار في المخاطبة والإقناع هو مظهر من مظاهر الإعجاز فيهما حيت جعلت الناس يدخلون في دين اللّه أفواجا خاضعين للحق بعد أن بهرهم الأسلوب وسحرهم البيان والمنطق العقلاني المؤثر.

أرجو اللّه تعالى أن تكون هذه الدراسة لبنة صالحة في صرح الجهد الدعوي والتنويري بعقيدة التوحيد، كما أرجوه أن يلهمنا الصواب في القول والفعل، وأن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم.



الفصل الأول

الحـوار..تعريف وتصريف

الحِوار: مصدر حارَ يحورُ، وهو الرجوع، والحَوْر: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ الانشقاق: ١٤، أي لن يرجع إلى ربه.

وفي الحديث: ومن دعا رجلا بالكفر، أو قال: عدوَّ الله وليس كذلك إلا حارَ عليه[١] أي رجع إليه ما نُسب إليه.

وفي الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي الدرداء: «كانت بين أبي بكر وعمر مُحاوَرة...»[٢]، أي مراجعة ومجاوبة في الكلام.

وجاء في لسان العرب: والحَوْر: النقصان بعد الزيادة، لأنه رجوع من حال إلى حال، والحَوْر: ما تحت الكور من العمامة، لأنه رجوع عن تكويرها، وحِوارا، ومحاورة، وحويرا، ومَحُورة – بوزن مشورة – أي جواباً.

واستحاره: أي استنطقه، وهم يتحاورون: أي يتراجعون الكلام.

والأحور: العقل، يقال: ما يعيش فلان بأحور، أي ما يعيش بعقل يرجع إليه.

والحواريون: صفوة الأنبياء الذين قد خلصوا لهم، لأنهم روجعوا في اختبارهم مرة بعد مرة فوجدوا نقيين من كل عيب[٣].

ويتضح مما تقدم أن الحوار مرده إلى المراجعة والمرادّة، حيث إن المتحاورَيْن يراجع كلمنهم كلامَ الآخر ويجاوبه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ (المجادلة: ١).

١–صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، كتاب الإيمان، حديث رقم: ١١٢، ج١/ ٨٠.

٢ –صحيح البخاري، طبعة استنبول، كتاب التفسير، تفسير سورة الأعراف، باب٢، ج٥/١٩٧.

٣ – ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار لسان العرب، بيروت، مادة حور، ج١/٧٥٠–٧٥١. الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، تحقيق محمد الكيلاني، البابي الحلبي، مصر، ط١، ص: ١٣٤.

حيث كانت خولة بنت ثعلبة تراجع النبي ﷺ في شأن زوجها أوس بن الصامت الذي ظاهر منها، ولم يكن قد نزل حكم الظِهار، فقال لها النبي ﷺ «ما أُمرت في شأنك بشيء» وفي رواية: «ما أراك إلا قد حَرُمت عليه»، ثم راجعت رسول الله ﷺ مرارا تشكو فاقتها وشدة حالها، حتى نزلت الآيات الكريمة من سورة المجادلة[1].

الفرق بين الحوار وبعض المصطلحات الأخرى

جاء في القرآن الكريم والسنة النبويةكلمات عديدة يظن البعض أنها مرادفة للحوار أو قريبة في معناها منه، ومنها: كلمة الجدال، وكلمة الخصومة، والمناقشة، من المفيد معرفة العلاقة بين هذه الكلمات في استعمال القرآن والسنة ولغة العرب.

١- الجَدَل:

قال ابن فارس: الجيم والدال واللام أصل واحد، وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه امتداد الخصومة ومراجعة الكلام[2].

وقال الفيروز أبادي: هو اللدَد في الخُصومة والقدرة عليها، والمفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة[3]، فالجدل أخص من الخصومة، واللدد في الخصومة بمعنى الشدة والمكابرة والتعنت، وهو مأخوذ من قوله تعالى: (وهو ألدّ الخِصام) البقرة/٢٠٥.

وقال ابن الأثير: المجادلة: المناظرة والمخاصمة[4]، فهي عنده بمعنى واحد.

---

١ - الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج٢/٤٨١، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٧/٢٧٠، الواحدي، أسباب النزول، تحقيق سيد صقر، ط٢، ص: ٤٣٣.

٢- ابن فارس، مقاييس اللغة، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ج١/٤٣٣.

٣- الفيروزبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، عالم الكتب، بيروت، ط١، ج٣/٣٤٧

٤-ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق الزاوي والطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ج١/٢٤٨.

وأصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله، ومنه الجديل، وجدلت البناء أي أحكمته والأجدل هو الصقر المحكم البِنية، والمِجْدَل: القصر المحكم البناء، ومنه الجِدال، لأن استعماله في محافل النظر سببا لفتل الخصم إلى موافقتك بإبطال ما يحتج به، وكذا لكونه مُحكما للأدلة والأسئلة والأجوبة.

قال الراغب الأصفهاني: فكأن المتجادلين يفتل كلٌّ واحدٍ الآخَرَ عن رأيه[1].

وجاء في لسان العرب: وقد جادله مُجادلة وجِدالا، ويقال: جادلت الرجل فجدلته جَدْلا: أي غلبته، ورجل جَدِل: إذا كان أقوى في الخصام، والاسم: الجَدَل، وهو شدة الخصام، وفي الحديث: (**ما ضلّ قوم بعد هدى.. إلا أُوتوا الجَدَل**)[2]، والمراد به: الجدل بالباطل.

وجاء أيضا في حديث الإفك قول أُسيد بن حُضير: «فإنك منافق تُجادل عن المنافقين»[3] يقصد سعد بن عبادة، حيث قالها في لحظة غضب.

وقوله تعالى: (ولا جِدال في الحج) معناه: لا ينبغي للحاجّ أن يماري ويخاصم أخاه فيخرجه إلى مالا ينبغي[4].

وقد عرَّف الجرجاني الجدل بقوله: «علم يُقتدر به على حفظ أي وضع يُراد ولو باطلا، وهدم أي وضع يُراد ولو حقا»[5].

وقال الفيومي: هو التخاصم بما يُشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب، هذا أصله، ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور

---

١ –الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ص: ٨٩.

٢– الترمذي، الجامع، كتاب التفسير، سورة الزخرف، وقال حسن صحيح، ابن ماجه، السنن، المقدمة، باب اجتناب البدع والجدل، ج١/١٩، مسند أحمد ج٥/٢٥٢.

٣– البخاري، الصحيح، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن، ومسلم في صحيحه كتاب التوبة، رقم ٥٦.

٤ – ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج١/٤١٩، مادة جدل.

٥ –الجرجاني، التعريفات، طبعة البابي الحلبي، ص: ٦٦.

أرجحها، وهو محمود إن كان للوقوف على الحق وإلا فمذموم[1].

قلت: من تعريف أهل اللغة واستقراء النصوص يتضح أن الجدل في أصله يلازم الخصومة والتمسك بالرأي، وهذا بخلاف المحاورة، فهي كما يستفاد من معناها اللغوي مراجعة القول بين المتحاورين دون أن يكون هناك بالضرورة خصومة أو تعصب لرأي؛ فيفهم مما تقدم أن المحاورة أعم من المجادلة، لأن المحاورة فيها عرض لوجهتي النظر في أسلوب لا تُقصد به الخصومة بالضرورة، والجدال يقصد به المحاجة والغلبة بإفحام الخصم وإبطال حجته، والحوار بمفهومه الواسع يعتمد على سعة الخيال وحضور البديهة والإحاطة قدرالامكان بخصائص ما يدور الحوار حوله.

الجدال بالحسنى:

وردت آيتان في كتاب الله فيهما ذكر الجدال، يُفهم منهما أن الجدال قد لا يكون مذموما، وهما: قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ (النحل: ١٢٥)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

قلت: عند التأمل في مضمون الآيتين الكريمتين ودراسة سياقهما يتضح أن المعنى لا يخرج عما سبق إيضاحه، وذلك أن الجدال لما كان عادة في مجال المغالبة ويصحبه التعصب للرأي فقد أشارت الآيتين إلى أهمية أن يكون الجدال مبنيا على أسس عادلة مشتملا على الرفق واللين، بعيدا عن الشتم والتسفيه ونحو ذلك مما يصحب الجدال في العادة، فأمرنا أن نجادل أهل الكتاب وأن نستمع إلى مقالاتهم وشبههم والرفق بهم في حلها وبيان خطئها، وسُمِّي جدالا لأن المسلم يعتقد في قرارة نفسه أنه على الحق المبين، لكن هذا لا يستدعي إظهار ما في النفس من أجل كسب ثقة الآخر واستمالته للإصغاء للحوار عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٍ

١- الفيومي، المصباح المنير، ط مصطفى البابي الحلبي بمصر، ج١/١٠٢.

مُّبِينٍ ﴾(سبأ/٢٤). هذه الآية التي يُفهم منها أهمية إظهار التجرد عند الحوار، والاستعداد للخضوع للحق عند ظهوره مما له أثر بالغ في نفسية الآخر.

وقد قال بعض أهل العلم: « فأما الجدل فهو مذموم في كل موضع ذُكر إلا في ثلاثة مواضع، أحدها في النحل: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)، الموضع الثاني في العنكبوت: (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن)، الثالث في المجادلة(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها)[1].

قلت: تقدم الجواب عن الموضعين الأولين، أما الموضع الثالث: فإن الجدال كان من خولة بنت ثعلبة الأنصارية، فهي التي كانت تجادل بمعنى تخاصم زوجها وتشتكي إلى الله تعالى ما بدر منه، أما الرسول -ﷺ- فكان يحاورها ويجيبها بلطف مبينا لها الحكم الشرعي: (ما أراكِ إلا قد حَرُمتِ عليه[2]، حتى نزلت الآيات الكريمات التي فيها بيان حكم الظهار.

وقد بين ابن حَزْم أن الجدال المذموم هو فيمن يجادل بعد ظهور الحق، وهذه صفة المعاند الآبي من قبول الحجة بعد ظهورها، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾ الزخرف: ٥٨، ثم قال: «فوجدناه تعالى أثنى على الجدال بالحق وأمر به، فعلمنا يقينا أن الذي أمر به غير الذي نهى عنه بلا شك، فنظرنا في ذلك لنعلم وجه الجدال المنهي عنه المذموم، ووجه الجدال المأمور به المحمود، لأنا وجدناه تعالى قد قال: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾النحل: ١٢٥، فكان تعالى قد أوجب الجدال في هذه الآية، وعلَّم فيها تعالى جميع آداب الجدال كلها، من الرفق والبيان

١- أبو الفرج ابن الحنبلي، استخراج الجدال من القرآن الكريم، مجموعة الرسائل المنيرية، دار إحياء التراث، بيروت، ج٣/٤١.

٢ - سبق تخريجه.

والتزام الحق، والرجوع إلى ما أوجبته الحجة القاطعة. ثم قال: وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ العنكبوت: ٤٦، فأمر عز وجل كما ترى بإيجاب المناظرة في رفق، وبالإنصاف في الجدال وترك التعسف والبذاءة والاستطالة، إلا على من بدأ بشيء من ذلك فيُعارض حينئذ بما ينبغي[١].

قلت: الجدال الذي يقصده ابن حزم يقصد به عموم المحاجة والمناظرة وإقامة البينات على الخصم، وهو أمر مطلوب محمود بنص الكتاب والسنة، فهو يتحدث عن الجدال بالمعنى الأعم ردا على مَنْ منع المناظرة والمحاجة ممن كان في زمانه كما يفهم من سياق كلامه.

وقد جاء عن السلف ما يُفهم منه أن الجدل المذموم ما كان في غير محله وصدَّ عن العمل، أخرج ابن عبد البر عن الأوزاعي أنه قال: «بلغني أن الله إذا أراد بقوم شرًّا ألزمهم الجدل ومنعهم العمل»[٢].

وقد نقل ابن بطة آثارًا عديدة عن سلف الأمة في النهي عن الجدال في الدين والتعصب المقيت ثم قال: «فاعلم يا أخي أني لم أر الجدال والمناقضة والخلاف والمماحكة والأهواء المختلفة والآراء المخترعة من شرائع النبلاء، ولا من أخلاق الفضلاء، ولا من مذاهب أهل المروءة، ولا ممن حُكي لنا عن صالحي هذه الأمة، ولا من سير السلف، ولا من شيمة المرضيين من الخلف»[٣].

قلت: وقد استعمل كثير من العلماء كلمة الجدل مرادفة للحوار أو المناظرة، لهذا قالوا في تعريف المناظرة: «المدافعة ليظهر الحق وبها يظهر صحة الدليل من فساده تحريرا وتقريرا».

---

١ – ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١ ٢، ج١/١٣-١٦.

٢ –ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ط١، بيروت، ٢/١١٣.

٣- ابن بطة العكبري، الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، تحقيق رضا معطي، دار الراية، ط١، ج٢/٥٣٢.

وقالوا: إنه لا فرق يبن الجدل والمناظرة، وأن ذلك يختلف عن المكابرة، وهي المنازعة في المسألة العلمية لإلزام الخصم وليس لإظهار الصواب[1].

٢- الخِصام:

قال أهل اللغة[2]: خَصَمته خَصْماً أي نازعته، يقال: خاصمْته وخصَمْتُه مخاصمة وخِصاماً، وسُمّي المخاصِم خَصْماً، واستعمل للواحد والجمع، وأصل المخاصمة أن يتعلق كل واحد بخَصْم الآخر أي جانبه، والجمع خُصوم وأخْصام.وقوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ الحج: ١٩- أي فريقان، ولذلك قال: اختصموا، والخَصيم: الكثير المخاصمة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾يس والخَصِم: المختص بالخُصومة، قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الزخرف: ٥٨

وفي الحديث الصحيح: (أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِم)[3].

قال النووي: الألد شديد الخصومة مأخوذ من لَديدَي الوادي وهما جانباه، لأنه كلما احتج عليه بحجة أخذ في جانب آخر، وأما الخَصِم فهو الحاذق بالخصومة، والمذموم هو الخصومة بالباطل في رفع حق أو إثبات باطل، والله أعلم»[4].

وقد وردت هذه الكلمة ومشتقاتها في كتاب الله في سبعة عشر موضعاً، تعبر في جميعها عن النزاع بين طرفين وهذا النزاع قد يكون بين الحق والباطل، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ الحج:١٩. ويريد بذلك فريق المؤمنين وفريق الكافرين.قال المفسر الآلوسي: «ومعنى اختصامهم في

١-الصاحب محيي الدين الحنبلي، الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل، تحقيق محمود دغيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ص: ٩٩.

٢ - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، مرجع سابق، ص: ١٤٩، ابن منظور، لسان العرب، ج١/٨٤٣، مادة خصم.

٣-صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب «وهو ألد الخصام»، وصحيح مسلم، كتاب العلم، باب في الألد الخصم ج٤/٢٠٥٤ .

٤- شرح النووي على صحيح مسلم، طبعة بيروت، مصورة عن المصرية، ج١٦/٢١٩.

ربهم: اختصامهم في شأنه عز شأنه، وقيل في دينه، وقيل في ذاته وصفاته، والكل من شؤونه تعالى، واعتقاد كل من الفريقين حقية ما هو عليه وبطلان ما عليه صاحبه وبناء أقواله وأفعاله عليه يكفي في تحقق خصومته للفريق الآخر، ولا يتوقف على التحاور»[1].

وقد يكون الاختصام بين أفرادٍ مؤمنين يتنافسون على أمر مشروع، كما أخبر اللّه تعالى عن حرص قوم مريم عليها السلام على كفالتها وتدافعهم على ذلك حتى وُفِّق لها خير الكافلين وهو زكريا عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ آل عمران /٤٤، فقد تنازعوا في أمرها لكنه التنازع المشروع الممدوح في التسابق للخير والعمل الصالح.

٣- المناقشة:

هذا اللفظ شاع استماله من قبل عامة الناس وفي لغة بعض الكُتّاب في معنى المحاورة، وعند الرجوع للّغة ونصوص الشرع نجد شيئاً آخر، وهو أن المناقشة لا تكون إلا من طرف واحد، لأن معناها استيفاء الحساب، بمعنى أنّ أحد الطرفين يستقصي ويستوعب محاسباً الآخر.وأصل المناقشة من نقش الشوكة إذا استخرجها من جسمه، حتى لا يترك منها شيئا[2].

وقد جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه الشيخان من رواية عائشة رضي اللّه عنها، عن النبي ﷺ قال: (من نُوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب)[3]. قال النووي: معنى نوقش: استُقصي عليه، ومعناه: أن التقصير

١ – الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، ط١، ج١٧/١٣٣.

٢ – ابن الأثير، النهاية، مادة نقش، ابن منظور، لسان العرب، ج٣/٧٠٤مادة نقش.

٣ – أخرجه: البخاري في صحيحه، طبعة استنبول، كتاب العلم، باب من سمع شيئا فراجعه حتىيعرفه، ج١/٣٥.

ومسلم في صحيحه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، كتاب الجنة، باب إثبات الحساب، رقم ٧٩، ج٤/٢٢٠٤.

غالب في العباد فمن استقصي عليه ولم يسامح هلك ودخل النار، ولكن اللّٰه تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء[1].

ومن خلال ما تقدم يُفهم أن الحوار أعم من الجدال، وأن كل جدال هو حوار، إلا أن الجدال يراد به الخصومة والغلبة، وليس الحوار كذلك في معناه الأعم، وأن استعمال المناقشة في موضع المحاورة خطأ شائع، لأن المناقشة تكون من طرف واحد، بينما الحوار يكون من الطرفين.

---

١ – النووي، شرح صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت – مصورة – ط٢، ج١٧/٢٠٩.



الفصل الثاني

الحوار في القرآن الكريم

الحوار في القرآن والسنة عند تدبره هو باب جدير أن يدخل منه الباحثون والعقلاء ليتوصلوا من خلاله إلى عظمة الشريعة في فحواها ومبناها، ويدركوا من خلاله أيضا أن فيه علاجا لكل مشكلات الناس الفكرية والمسلكية، وأنه يضع منهجا واضحا للإجابة على كل التساؤلات.

وقد هدف هذا الفصل إلى بيان:

- أن كتاب الله قد أرسى مشروعية الحوار الهادف الموصل للحق، وبيّن الأسلوب الأمثل للتواصل بين الناس
- وأن القرآن الكريم قد استعمل الحوار كثيرا لإقناع المخاطبين.
- وبيان مدى إسهام أسلوب المحاورة في الهداية والإصلاح والإقناع وأنه منهج الأنبياء في دعوة أممهم، ثم هو وصية الله تعالى إلينا في كيفية التعامل مع الآخرين.

- إنَّ اعتماد القرآن الكريم للحوار في المخاطبة والإقناع هو مظهر من مظاهر إعجازه وسر من أسراره التي جعلت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ويخضعوا للحق بعد أن تدبروا آياته ونهلوا من معينه، وقالوا بفصيح العبارة: « إنه مثمر أعلاه، مُغدق أسفله، يعلو ولا يُعلى عليه»[1].

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء/٩).

والقرآن في كل ذلك يؤكد حقيقة الاختلاف بين البشر، ويؤكد حرية التفكير الاعتقاد، وأن من حق كل أحد أن يطالب بالدليل، وأنه لا إقناع بدون حجة أو منطق.

وقد أكَّدَ القرآن مبدأ الحوار بطرق عديدة، فعرض القرآن لحوار الله مع

---

١ – من قول الوليد بن المغيرة، أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، سورة المدثر، ج رقم: ٣٨٧٢، ج٢/٥٥٠ . وأورده ابن كثير، في السيرة النبوية، باب مجادلة المشركين رسول الله ﷺ، ج١/٤٩٩،

خلقه بواسطة الرسل، وكذا مع الملائكة ومع إبليس، رغم أنه يمتلك القوة ويكفيه أن يكون له الأمر وعليهم الطاعة، كما أنَّ دعوات الرسل كلها كانت محكومة بالحوار مع أقوامهم، وقد أطال القرآن في عرض كثير من هذه الحوارات بين الرسل وأقوامهم ولم يشجب القرآن في هذا الباب موقفاً كما شجب موقف رفض الحوار والإصرار على عدم ممارسته:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (الجاثية:٧-٩)

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ (فصلت: ٥)

ولم يكن حديث القرآن عن الحوار حديثاً عَرَضياً بل اهتم به اهتماماً كبيراً من حيث المنهج والقواعد التي ينبغي أن يسير عليها، وعَرَض لأساليبه ونماذج منه، مما يعطي المتأمل فيه نظرية متكاملة عن الحوار من خلال القرآن الكريم

وحتى نصل إلى أسس الحوار في القرآن ومنهجه فيه ونستفيد من ذلك في معرفة الأساليب المثلى في التواصل مع الآخرين ومحاورتهم، ولبيان فضل الإسلام على الأمة والبشرية جمعاء في إبراز قيمة الحوار والدعوة إليه قولا وعملا، فقد جاء هذا الفصل في أربعة مباحث:

المبحث الأول: بيان القرآن لتاريخ الحوار والجدل

المبحث الثاني معالم الحوار في القرآن الكريم

المطلب الثالث: منهج الأنبياء في محاورة أقوامهم

المبحث الرابع: محاورة الله تعالى لعباده، وفيه مسائل:

ذكر الأدلـة على وجـوده تعالى، ذكـر أدلـة البعث والنشور، ذكـر أدلة النبوة، ذكر محاورة أهل الكتاب، محاورة المشركين، ذكر الأسئلة والأجوبة الجدلية..

المبحث الأول: بيان القرآن لتاريخ الحوار والجدل:

الحوار قديم قِدَم الإنسانية والخلق، فقد أثبت القرآن أن الجدل طبع وغريزة في الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ (الكهف/٥٤).

الحوار مع إبليس:

يسوق القرآن الكريم أول حوار عرفه التاريخ، وهو الحوار الجدلي الاستكباري من إبليس، بعد أن رفض السجود لآدم فتوجه له الخطاب الرباني: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ (الأعراف/١٢-١٥).

الحوار مع الملائكة:

ساق القرآن أيضا الحوار الاستفساري بين الخالق عز وجلّ وبين الملائكة، حيث أرادت الملائكة أن تفهم وجه الحكمة من خلق آدم، فسألت سؤال المستفهم المتعلم، فأجابهم الباري ونقل لنا ذلك الحوار في محكم كتابه لندرك عظيم النعمة ونستشعر عظم الأمانة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة /٣٠).

وساق القرآن أيضا ذلك الحوار الذي دار بين ابني آدم: قابيل وهابيل، وساق ما دار من حوار بين الأنبياء وأممهم قوم نوح وإبراهيم ولوط وموسى وعيسى وغيرهم، مما يدل دلالة واضحة على أن الحوار قديم قدم التاريخ، وأنه ارتبط بالعقلاء من خلق الله تعالى من ملائكة وإنس وجن، والسعيد من استفاد منه للوصول للحق وليس للتلبيس أو دحض الحق، والسعيد من وُعِظَ بغيره.

المبحث الثاني: معالم الحوار في القرآن الكريم

مشروعيته، منهجه، أهدافه

إن اهتمام القرآن الواضح باعتماد منهج الحوار في مخاطباته وبيان حقائقه ونصحه ومواعظه وقصصه لهو أكبر دليل على أن اللّه تعالى يريد لنا أن يكون الحوار منهج التواصل والتعايش، وأن يكون الإقناع والحجة طريق الدعوة ونشر الثقافة.

فأسلوب الحوار يُستعمل لنقل معلومة أو إثبات قضية من غير طريق السرد المباشر، وإنما من خلال السؤال والجواب أو تبادل الأفكار والمعلومات، مما يعطي السياق الذي تنقل به المعلومة اهتماما وحيوية بعيدا عن السآمة والملل، بل يدفع السامع للاهتمام والتيقظ والانتباه لما يقال وما يجاب به، لهذا نجد اهتمام القرآن بمحاورة الناس، وحكاية محاورة الأنبياء لأقوامهم، ونجد أن اللّه تعالى ساق لنا كثيرا من القصص والمواعظ والحكم بطريقة الحوار، ليوصِل للقارئ ما فيها من إقناع أو فائدة أوعبرة أوحكمة أوموعظة، قال السيوطي: «وقد أخرج اللّه تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة ليفهم العامة من جليها ما يُقنعهم، وتلزمهم الحجة، ويفهم الخواص من أثنائها ما يَربَى على ما أدركه فَهْمُ الخطباء»[1].

والحوار في القرآن نجده يفيد وعظًا أو نصحًا أو إجلاءً لحقيقة أو تثبيتا لأقدام المؤمنين، أو دحضا لباطل وما شابه ذلك من إجابات على تساؤلات تشغل بال الإنسان العاقل، وكل ذلك بأسلوب يتناسب مع المستوى العقلي للإنسان عموما بعيدا عن الجدل الفلسفي والتخبط المردي.

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ﴾ الزمر/٢٣. ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴾ النساء/٨٧.

---

١ - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج٢/١٣٥.

والحوار في القرآن عند تدبره وتأمله هو باب من الممكن أن يدخل منه الباحثون والعقلاء ليتوصلوا من خلاله إلى إعجاز القرآن في فحواه ومبناه، ويدركوا من خلاله أيضا أن فيه علاجا لكل مشكلات الناس الفكرية والمسلكية، وأنه يضع منهجا واضحا للإجابة على كل التساؤلات، ويربي ملكة الحوار عند من يتدبره ويتفهم ما فيه.

ومن هنا تبدو أهمية اللسان والقدرة على البيان والحوار حيث إنه السلاح الحقيقي والمؤثر في مواجهة الناس خاصة من يجادل للتمسك بتقاليده وعاداته التي ورثها وألفها، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ (إبراهيم /٤).

فوظيفة اللسان البيان وإقامة الحجة والإقناع، من أجل ذلك دعا موسى عليه السلام ربه أن يعطيه القدرة على البيان الواضح من أجل أن يقدر على إقناعهم وليفقهوا قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴾ (طه/٢٥-٢٨) .

وهذا من حرص نبي الله موسى عليه السلام على أن يهيئ لدعوته أنجع الوسائل وأحسن السبل التي تؤدي إلى تصديق القوم له وعدم تكذيبهم إياه: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ (**القصص/٣٤**).

ولا شك أن الفصاحة والبيان لها أثر كبير في الحوار من حيث تنسيق الكلام المناسب فيالمقام المناسب واختيار الألفاظ المؤثرة والمعاني المعبرة.

«والحجة الصحيحة لا تُغلب أبدا فهي أدعى إلى الحق وأنصر للدين من السلاح الشاكي والأعداد الجمّة، وأفاضل الصحابة الذين لا نظير لهم إنما أسلموا بقيام البراهين على صحة نبوة محمد ﷺ عندهم فكانوا أفضل ممن أسلم بالغلبة بلا خلاف من أحد من المسلمين»[1].

١ - ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج١/١٨.

وإذا كان الهدف من الحوار هو التواصل بين الناس وإيصال الحق لهم، وكذا التوصل للحق حيثما كان، ولأن(الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها التقطها) ، فإن سلاح المحاور إنما هو لسانه وما يصدر عنه من منطق مقنع وحجة واضحة، لهذا بيّن الله تعالى أن هذا الدين جاء من خلال البرهان وليس الإكراه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(النساء/ ١٧٤) .

وقد طالب الله تعالى من يدعي دعوى أو يتمنى أمنية دون دليل أن يقدم البرهان: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ (البقرة /١١١)- وبين أن الذي يشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا برهان: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (النمل/٦٤).

وقد بين أهل اللغة أن البرهان مصدر برَهَ إذا ابيضَّ، وأن معناه: بيان الحجة، وأنه أوكد الأدلة وهو الذي يقتضي الصدق أبدا[١] .

والقرآن بذلك يرشدنا إلى الطريق القويم في الحوار مع الآخرين وهو أن نستمع للدعوى ثم نطالب بالبرهان وما دام أنه لا برهان معه فإنه سيرجع إلى نفسه إن كان عاقلا ويعرف أنه على باطل، إذ إن كل شخص قادر على أن يدعي ما يشاء لكن المهم هو أن يبرهن على صحة ما يقول ويعتقد.

وفي الفقرات التالية بيان لطريقة القرآن في استعمال الحوار لتقرير قضاياه وترسيخ مشروعيته:

الحوار منهج القرآن في تقرير أهدافه:

عند تدبر المواضيع التي تطرق إليها القرآن سوف نجد أن الحوار هو الإطار العام لتقرير المسائل وترسيخ الأفكار وإيصال الفكرة، ويتبين من خلالها مشروعية الحوار وأهميته وطريقة القرآن في إيراده:

---

١ - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، مرجع سابق، ص: ٤٥.

١-محاورة منهج التفكير:

أهم ما يحاور فيه الإنسان العاقل هو المنهج الفكري- قبل المناقشة في طبيعة الفكرة وتفاصيلها- في محاولة لتعريفه بالحقيقة التي غفل عنها ؛ وهي أن القضايا الفكرية لا ترتبط بالقضايا الشخصية، فلكل مجاله ولكل أصوله التي ينطلق منها ويمتد إليها:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٠)

قال الزمخشري: (أولو كان آباؤهم) الواو للحال، والهمزة بمعنى الرد والتعجيب معناه: أيتبعونهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا من الدين ولا يهتدون للصواب[١].

٢- التحذير من الطغيان والتكبر في الأرض وعدم الاعتداد بالنفس

إن من أكبر الموانع من اتباع الحق وأكثر ما يصد الناس عن الدين وسلوك طريق الصالحين إنما هو الطغيان والكبر والعناد، فأشار القرآن إلى هذا وقص علينا من تاريخ من قد مضى ما فيه العبرة، فساق الله تعالى لنا قصة قارون مع قومه بأسلوب فيه حوار وأخذ ورد، ويبين فيه موقف الفئة المؤمنة وشرف العلم في مقابل الفئة المتهالكة على الدنيا نتيجة الجهل والغفلة:

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي

---

١ - الكشاف عن حقائق التنزيل، الزمخشري، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ج١/٢٣٩.

زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ (القصص: ٧٦- ٨١).

ولنا أن تدبر فيما ساقه الله تعالى في هذه المحاورة من نظرة متوازنة لعقلاء قوم قارون عندما قالوا له: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ﴾

ولنا أن ننعم النظر في نصائحهم المغلفة بالأدب والذوق الرفيع: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ثم لنا أن نتصور ذلك الحوار الذي تبادله «الذين يريدون الحياة الدنيا» مع «الذين أوتوا العلم»، وهذه المقابلة يُفهم منه بطريق الإشارة أن الذين يريدون الحياة الدنيا إنما فعلوا ما فعلوا وركنوا إلى الدنيا نتيجة الجهل والغفلة، ويتبين لنا شرف العلم وأهله، والعاقبة الحميدة التي يسوق إليها.

ثم لنتأمل فيما ختم الله به ذلك الحوار: «فخسفنا به وبداره الأرض..» وهي عاقبة المتكبرين المتجبرين الذين صدتهم شهوات الدنيا عن الالتفات للآخرة التي هي خير وأبقى.

والمتدبر في الحوار السابق بكل ما فيه من بلاغة وإيجاز وتشويق للقارئ بأسلوب حواري قصصي يخرج بمعاني جميلة وحكم بليغة، منها:

أن الله تعالى هو المانح الواهب، وأنه ينبغي شكر النعمة وإلا كان مصيرها الزوال، وأن النظرة المتوازنة بين الدنيا والآخرة مطلوبة، وأهمية تذكير المعتد بنفسه بحال الأمم الماضية ومصيرها، ثم فضيلة العلم وقبح الجهل، وغير ذلك من المعاني المهمة[1].

١- راجع تفسير ابن كثير، تحقيق عادل أحمد وزميله، مكتبةالعبيكان، الرياض، ط١، ج٤/٥٢٢.

ونلحظ كيف ختم الله تعالى قصة قارون وعاقبته بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص: ٨٣)، حيث أوجز الهدف من الحوار السابق بين قارون وقومه وعاقبة قارون وَمَنْ سلك مسلكه.

٣-وفي باب بيان عاقبة الشرك والتفاخر المذموم:

يسوق الله لنا محاورة بين مؤمن فقير وكافر غني، وقد كان بينهما صحبة ومعرفة، لكن أحدهما وهو الكافر له جنتان، والآخر فقير، وقد تطاول الكافر الغني على صاحبه الفقير وتفاخر بماله، وجاهر بكفره وعدم إيمانه بالبعث:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾
وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ
جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ
قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ
يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ
رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا
بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ
وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا
فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ
خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (الكهف: ٣٢ - ٤٣).

قال الرازي: اعلم أن المقصود من هذا أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين، فبين الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنياً والغني فقيراً، أما الذي يجب

الافتخار به فطاعة الله وعبادته، وهي حاصلة لفقراء المؤمنين، وبيَّن ذلك بضرب هذا المثل المذكور في الآية[1].

وهذه المحاورة تمثل اختلافا جوهريا في الدين والمنهج بين صاحبين، وقد قامت بسبب المفاخرة التي أبداها الكافر الغني وتطاول بها على صاحبه الفقير، وجاهر من خلالها بكفره بالبعث، وقد أعماه التكبر والانغماس في الملذات عن الهداية والتواضع ومعرفة حق الله تعالى.

ويمثل الطرف الآخر الإنسان الراشد ذلك المؤمن الذي التزم الحق ولم يصده فقره عن اللهث وراء مال الأغنياء أو حسدهم عليه، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس وقد مهّد القرآن الكريم للحوار بذكر مشهد الجنتين المزدهر الخلاب الذي يثير الأنفس لنعم الدنيا ومتاعها: (**واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب، وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا..**).

ويُفهم من سياق الآيات أن المؤمن كان يحاور صاحبه بالوعظ والدعاء إلى الإيمان بالله والبعث، فذكر القرآن أنه عند هذه المحاورة قال الكافر وهو ممتلئ نشوة و بطرا واختيالاً: (**أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا..**)[2].

وفي قوله: « **ولئن رُددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا..**» بيان لشدة غروره حيث ظنّ أنه سيبقى محظوظا وتحفه الرعاية على فرض وجود آخرة»[3]، وقد نسي هذا المغتر بماله وجاهه أن فتح باب الدنيا على الإنسان قد يكون للاستدراج وليس لكونه مستحقا لذلك.

ونلحظ كيف قام الطرف الراشد المعتز بعقيدته بمهمة الدعوة والتذكير وإبداء النصح وبيان قدرة الله تعالى الذي وهب، وأنه قادر على أن يسلب

١- الرازي، التفسير الكبير، ج٢١، ١٢٤.

٢-الرازي، التفسير الكبير، ج١٢٨/٢١.

٣- سيد قطب، فيظلال ا لقرآن، دار إحياء ا لتراث العربي، بيروت، ط١٣، ج٩٥/١٥.

النعمة كما منحها، كل ذلك بأسلوب مفعم بالإقناع في الحوار والأدب في الأسلوب، دون السب أو التجريح، إنما ذكره بأصله ومنشئه، وأن له ربا قادرا هو الذي أنعم عليه: (**أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلا..**)

ثم أرشده إلى ما ينبغي: (**ولولا إذْ دخلت جنتك قلتَ ما شاء الله لا قوة إلا بالله..**)

ثم العاقبة المتوقعة والندم الذي لا ينفع: (**وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه..**)

وهذا المشرك إنما ندم على الشرك لاعتقاده أنه لو كان موحدا غير مشرك لبقيت عليه جنته، فهو إنما رغب في التوحيد والرد عن الشرك لأجل طلب الدنيا، فلهذا السبب ما صار توحيده مقبولا عند اللّه، ولهذا قال تعالى: (**ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا**)[1].

والقرآن الكريم يريد أن يوصل لنا الهدف من ذلك وهو أن علينا أن نعتبر بما قصَّه اللّه علينا، فمن كان منا غنيّا فليتعظ وليتأدب مع المنعم حتى لا يصيبه ما أصاب ذلك الكافر بأنعم اللّه، ومن كان منا فقيرا فليقتدِ بذلك المؤمن الفقير، وكيف أنه ترفع عن سفاسف الدنيا وحطامها، وكيف ينبغي أن تكون النفس عزيزة، والهمة عالية، دون النظر إلى متاع الحياة الدنيا.

وكل إنسان عاقل يتدبر الحوار السابق يُكبر ذلك الفقير المؤمن الذي لم يبالِ بقلة المال، ولم يُدارِ صاحبه الغني ولم يجامله على حساب عقيدته، بل يشاركه موقفه في حواره مع صاحبه الغني المتكبر، وأنه من الممكن أن نوصل رسالتنا للآخر دون تحقير أو تسفيه، كما يدرك كل متدبر أثر الحوار في إيصال الأفكار المهمة والمعاني الجميلة التي أراد اللّه تعالى تذكيرنا بها.

١- الرازي، التفسير الكبير، ج٢١/١٢٩.

٤-وفي باب التعريف بقدرة الله تعالى نقرأ في كتاب الله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة/٢٦٠).

إن نبي الله إبراهيم عليه السلام – موقن بقدرة الله، لكنه يريد أن يرى تلك المعجزة لتكون آية له يحاجج بها قومه، وأسلوب إبراهيم يختلف عن أسلوب الذي مرّ على قرية وهي خاوية فقال: « أنى يحيي هذه الله بعد موتها».

قال الرازي: إن إبراهيم لما راعى الأدب جُعل الإحياء والإماتة في الطيور، وعُزيرا لما لم يُراع الأدب جُعل الإحياء والإماتة في نفسه[١].

والآيات الكريمة تعبر عن تشوف نبي الله إبراهيم عليه السلام- لمعاينة آثار قدرة الله تعالى، وهو يدل على أن المؤمن كلما ازداد قربا من الله ازداد شوقا وتطلعا لرؤية آثار القدرة، وليس هو طلب لبرهان أو لزيادة إيمان، بل هو تعبير عن الحب والشوق إلى رؤية آثار قدرة الله تعالى وهي تبدع ليتذوق طعم الإيمان، وقد منَّ الله تعالى على إبراهيم باستجابة طلبه وتحقيق تطلعه وأسبغ عليه نعمة رؤية آثار القدرة: (**قال فخذ أربعة من الطير..**)[٢].

ونلحظ أن الله تعالى قد قص علينا مشهد الحوار، ليعرفنا كيف رأى إبراهيم الحياة تعود للأموات وكيف تتجلى قدرة الله وإبداعه، وأنه لا يُعجزه شيء، وهو تذكير لنا بالحياة التي جاءت أول مرة بعد أن لم تكن، ودعوة للناس للخشوع للخالق الذي اختص بالقدرة المطلقة.

وفي باب القدرة أيضا يقول الله تعالى: - بعد أن ساق دعاء زكريا ومناجاته لله تعالى في خُفية وطلبه الذرية: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ

١- الرازي، التفسير الكبير، ج٧/٣٨.

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٣/٣٠٢.

نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ (مريم/٧-٩).

ومن يتدبر الحوار السابق يشعر بما أغدقه اللّه تعالى من حب ورعاية على نبيه زكريا حيث ناداه وعجّل له البشرى بأن وهبه غلاما واختار له اسم الغلام « **إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى..** »، وأخبره أن هذا الاسم لم يُسبق: « **لم نجعل له من قبل سميا** »، وهنا أيقن زكريا برحمة اللّه وفضله ورعايته له، فسأل اللّه أن يُعلمه بالوسيلة التي شاء أن تكون لهذا الفضل والهبة ليطمئن قلبه، خاصة أنه شيخ كبير وامرأته عاقر: « **قال ربَّ أنى يكون لي غلامٌ وكانت امرأتي عاقرا، وقد بلغتُ من الكِبر عتيا** »

وقد بين اللّه تعالى له مثلا قريبا وهو ذكر أصل نشأته وخلقته بعد أن لم يكن: « **قال كذلكَ قال ربُكَ هو عليَّ هيِّن، وقد خلقتُك من قبل ولم تك شيئا** » إن زكريا لا يشك لحظة في قدرة اللّه تعالى، لكنه لما لم تجرِ العادة أن يُرزق الإنسان بولد على كبر سنه وسن زوجه أراد أن يطمئن إلى الوسيلة، فكان ذلك الحوار وكانت الاستجابة وكان التذكير.

١- وفي باب تصحيح الاعتقاد بعيسى عليه السلام

يبين الباري خطأ النصارى في اعتقاد ألوهيته وأنه ابن اللّه- تعالى اللّه عن ذلك- فنجد أن القرآن الكريم يذكر لنا حوارا يدور في أرض المحشر، حيث يريد اللّه أن يظهر للناس من خلال هذا الحوار شناعة قول النصارى وكيف يتبرأ عيسى عليه السلام مما افتري عليه ونسب إليه:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا

تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ﴾ (المائدة: ١١٦ - ١١٧).

هذا الخطاب كان موجها لعيسى وحده من بين الرسل، وذلك لكونه النبي الوحيد الذي جعله الله آية: (**ولتكون آية للناس**) وبسبب ذلك ضلَّ فيه أكثر النصارى واعتقدوا فيه الألوهية وأنه ابن الله، تعالى الله عن ذلك، والله تعالى لا يخفي عليه ما قاله عيسى للناس، ولكنه يريد من خلال حكاية ذلك الحوار إلى تقريع وتبكيت كل من بالغ في إطرائه للمسيح وخرج به عن الاعتقاد الحق: «**أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟! قال سبحانك..**»

«وهذا الاستفهام على سبيل الإنكار، ومخاطبة عيسى الغرض منه توبيخ النصارى وتقريعهم، وقول عيسى: « **إن كنت قلته فقد علمته..**» مبالغة في الأدب وفي إظهار الذل والمسكنة في حضرة الجلال وتفويض الأمور بالكلية إلى الحق سبحانه»[1].

وهذا الحوار ذكره الله تعالى بعد أن بين هول الموقف عندما خاطب الرسل وهم شهداء الأمم: «**يوم يجمع الله الرسل فيقول: ماذا أُجبتم؟ قالوا: لا علم لنا، إنك أنت علام الغيوب**».

وكان جوابهم مختصرا كله أدب وهيبة، حيث لم يُدلوا بحضرة العليم الخبير بما لا يخفى عليه» **إنك أنت علام الغيوب**»، وهم قد أدركوا أن هذا الخطاب يراد به إظهار شهادة الرسل على أقوامهم وتبكيت من انحرف عن جادة الحق والصراط المستقيم، وليوقن أهل الموقف أن هؤلاء هم أنبياء الله ورسله قد أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة.

وكذلك هي رسالة واضحة المعالم لكل من يقرأ القرآن أو يسمع هذه الآيات، أن ما يعتقده النصارى في نبي الله عيسىعليه السلام إنما هو ضلال وانحراف عن الحق، وقد ساق الله ذلك على لسان عيسى نفسه حيث

١- الرازي، التفسير الكبير، ج١٢/١٣٥.

مجّد الله ونزهه عن مثل تلك الأقاويل المفتراة: « **ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم..**».

٦-وفي معرض بيان قيمة العمل الصالح:

بيّن القرآن أن النسب لا يجدي حتى ولو كان الشخص ابنا لنبي، وفي هذا يسوق الله تعالى لنا ما دار من حوار بين نوح وابنه بعد أن عمّت المياه الأرض وركب نوح وأتباعه المؤمنين في السفينة:

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ هود: ٤٢ – ٤٧.

هذه الآيات تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب، ولما انتفت قرابة الدين نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ: « إنه ليس من أهلك».

فكل من يقرأ هذه الآيات بتدبر يوقن بأهمية العمل الصالح واتباع الحق، وأن الاتكال على النسب والحسب لا يجدي، وإن إيصال هذه المعلومة كان ممن الممكن أن يكون بالسرد والوعظ المباشر، لكن تضمينها في ثنايا الحوار القصصي كان له أبلغ الأثر:

(فقال ربِّ إن ابني من أهلي، وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين

قال: يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عَمَل غيرُ صالح)

فحكم تعالى أنه ليس من أهله لأنه خالف أباه في المنهج والعقيدة، ولن تستطيعإيصال هذه المعلومة بأفضل مما ساقه القرآن، ومع بيان شفقة الأب على ابنه وحرصه على إيمانه، ومع ذلك يركب الغرور والصلف رأس الابن ويأبى إلا الكفر والعناد، وظن أن الجبل سيعصمه من الماء

وهذه حال الكفار في كل زمان يأوون إلى مايظنونه عاصما لهم ثم يأتيهم ما قُدِّر لهم من أمر الله، ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ (**العنكبوت / ٤١**).

٧- **وفي باب تصوير حالة التلاوم والتبرؤ بين الأتباع والمتبوعين:**

يصور الله تعالى لنا مشهدا من المشاهد المعبرة عن النتيجة الوخيمة التي آلت إليها حالة المنحرفين عن منهج الله:

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ (إبراهيم / ٢١).

هذه الآيات تعبر بصورة واضحة مشهدا حيا كأننا نشاهده بأسلوب الحوار الذي يعبر فيه الأتباع عن لومهم لأسيادهم الذين تسببوا لهم بهذا المصير المخزي، وقد تبرأ منهم المتبوعون، وقالوا لهم: (**لو هدانا الله لهديناكم**).

المبحث الثالث: بيان القرآن لمنهج الأنبياء في محاورة أقوامهم

المتأمل في حوار الأنبياء يجد أن كل نبي قد استعمل الحوار في مخاطبة قومه من أجل أن يكون إيمانهم عن قناعة واعتقاد، ونجد أن كل نبي قد خاطب قومه بما ينفعهم مراعياً أهم ما يحتاجه قومه وهو ما يُعرف بفقه الأولويات، والأنبياء جديرون بهذا حيث إنهم صفوة الله من خلقه.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (الحج/٧٥).

وقال: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام /١٢٤).

ومن المعلوم أن الناس تكثر أمراضهم وتتنوع باختلاف الزمان والمكان ومن هنا شاءت إرادة الله تعالى أن يكون في كل قوم هاد، وأن لا تخلو أمة من رسول، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل/٣٦)، وقال: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ (فاطر/٢٤).

وكان واجب هؤلاء الأنبياء سياسة شؤون أمتهم ورعايتهم وتوجيههم لما يصلحهم، وكان هذا يقتضي أن يخاطبوهم بعقلانية ومنطق ليكون إيمانهم خالصا، واتباعهم لهم صادقا، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي**»[1].

والسياسة هي رعاية الشؤون، ومن أهم شؤون الأمم: مخاطبة الناس على قدر عقولهم وتوجيههم لما ينفعهم ويصلحهم ويعالج أمراضهم. وقد قص الله تعالى علينا بعضا من محاورات الأنبياء لأقوامهم وذلك ليبين لنا الأسلوب الأمثل في الدعوة إلى الله تعالى، وما ينبغي من الحكمة وحسن

---

١ –أخرجه: البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ٥٠، ومسلم في كتاب الإمارة، حديث رقم٤٤.

المخاطبة المبني على الإقناع والحوار، ثم الصبر على سفاهة من يجهل أو يسيء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ (الأنعام/٩٠).

نماذج من محاورات الأنبياء:

أولا: ما قصه الله تعالى من حوارالأنبياء على وجه الإجمال لأقوامهم:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (إبراهيم: ٩ - ١٢).

فأخبر سبحانه عن أن الأنبياء حاوروا أقوامهم وقدموا لهم البينات والحجج الدامغة، وأخبر عن موقف الكفار وأسلوبهم الفظ في الحوار، وأخبر عن مناظرة الكفار للرسل في الوحدانية أولا فإنهم في شك من وحدانية الله الذي يدعونهم إليه، وناظروهم في النبوة ثانيا بقولهم: «**إن أنتم إلا بشر مثلنا**»

ثانيا: محاورة نوح عليه السلام لقومه: قال تعالى ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ

وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (نوح: ١٠ – ٢٠).

نلحظ هنا محاولة نبي الله نوح عليه السلام إشعار الناس بذنوبهم وأن الله وحده هو غافر الذنب وقابل التوب، وأن التوبة والاستغفار– وهما عنوان العبودية والإنابة إلى الله تعالى– هو السبيل لنزول بركات السماء واستخراج بركات الأرض، وأنه السبيل للقوة وكثرة البنين، ثم أراد عليه السلام أن يلفت انتباههم إلى استحقاق الله سبحانه للطاعة والتوقير والخشوع وذلك لظهور آيات ربوبيته وقدرته بما في الأفاق والأنفس من دلائل الإبداع والقدرة والعناية، فذكر لهم آيات الله تعالى في أنفسهم: «وقد خلقكم أطوارا»، ثم ذكرهم بآيات الله في الآفاق: « **ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا، وجعل القمر فيهن نورا..**»

وقد كثر حوار نوح لقومه وتنوع، ينذرهم ويبين لهم ويحذرهم من عذاب الآخرة وعذاب الدنيا، وكيف كان يتصدى له عِلْيةُ القوم ممن أترفوا في الحياة الدنيا من غير منطق معقول ولا برهان مقبول، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ (هود/٢٥–٢٧).

قال الآلوسي: وهذه المقالة وما في معناها مما قص في غير آية لم تصدر عن نوح عليه السلام مرة واحدة بل كان يكررها في مدته المتطاولة حسبما نطق به قوله تعالى: حكاية عنه: «رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا..» الآيات[1].

١ – الآلوسي، روح المعاني، ط دار الفكر، بيروت، ج١٢ /٣٦.

ويفهم من الآية الكريمة أنهم أرادوا التعريض بأنهم أحق بالنبوة، كأنهم قالوا: هب أنك مثلنا في الفضيلة والمزية وكثرة المال والجاه فلم اختصصت بالنبوة من دوننا؟ ويفهم أيضا أنهم أرادوا أنه ينبغي أن يكون ملكا لا بشرا، فكلامهم يدور حول إثبات أنه عليه السلام مثلهم وليس فيه مزية يترتب عليها النبوة ووجوب الطاعة والاتباع.

عند ذلك أجابهم نوح بالحجة الباهرة: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ (هود/٢٨).

وهذا جواب منه عليه السلام ليبين ركاكة رأيهم المذكور، واستهل جوابه بكلمة «يا قوم» تلطفا بهم واستدراجا لهم، والبينة هي الحجة الظاهرة، والرحمة هي النبوة التي اختصه اللّٰه بها، فأراد أن يوضح لهم أن معه دليل النبوة وهي البينة، التي تجاهلوها ولم يتدبروا فيها، وأن اللّٰه اختصه بها رحمة من عنده لكنكم ضللتم عن الحق والهدى وأنا لا أكرهكم على الاهتداء بها وأنتم لا تختارونها ولا تتأملون فيها.

ومحصلة جوابه عليه السلام: أخبروني إن كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة دعواي إلا أنها خافية عليكم غير مسلمة لديكم أيمكننا أن نكرهكم على قبوله وأنتم معرضون عنها غير متدبرين فيها؟! أي لا يكون ذلك، والاستفهام منه عليه السلام للحمل على الإقرار وهو الأنسب بمقام المحاجة والحوار لأن كلامه كان جوابا على شبهتهم التي أدرجوها في خلال مقالهم من كونه بشرا مثلهم.

ومراده عليه السلام ردهم عن الإعراض عنها وحثهم على التدبر فيها بصرف الإنكار إلى الإلزام حال كراهتهم لا إلى الإلزام مطلقا[1].

فما كان جواب قومه إلا ما قصّه اللّٰه تعالى علينا: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا

١ - المرجع السابق، ج١٢ /٤٠.

فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (هود /٣٢).

ثانيا: محاورة إبراهيم عليه السلام لقومه:

وكان له عليه السلام ثلاث مقامات في محاورة قومه، كلها فيها عبر وحكمة، وتدل على صبره وملاطفته لقومه واستعماله كل أساليب الإقناع والخطاب العقلاني الهادي إلى سواء السبيل عند من يتدبر ويعقل:

المقام الأول في مناظرته لقومه عُبّاد الكواكب والأصنام:

وقد حاول عليه السلام أن يحاورهم بأسلوب التجرد وهو أنه تقمص شخصية من ينظر ويبحث في أسرار الوجود وعن الرب المعبود الذي يستحق العبادة، فحكى الله تعالى عنه ليبين لنا طريقة مناظرته لقومه وما فيها من إلزام:

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ٧٦ – ٧٨

ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ الأنعام: ٨٣

فانظر إلى أسلوبه عليه السلام في الحوار، وكيف أنه استفاد من الظرف المناسب للتأمل والحوار «**فلما جنَّ عليه الليل**»، إنه الليل المملوء بآيات الله من كواكب ونجوم، إنه ظرف مناسب للحوار بعيدا عن صخب الحياة وضجيجها، ولنتأمل كيف أنه تدرج بهم ليثبت لهم أن ما يعبدونه أشياء متغيرة، والرب لا يتغير، كما أشعرهم بسخافة ما يعتقدونه وكلها مخلوقات تتغير وتغيب وبعضها أكبر من بعض، والرب المعبود يتنزه عن التغير

أو الغياب، وانظر في عبارته «**لا أحب الآفلين**»، وكيف أنه انتظر أفول القمر ليبرهن لهم عمليا أنه لا يستحق أن يكون إلها، وعندما استمر بهم وتدرج بهم للشمس قال: «**هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون**»

وكل ذلك منه عليه السلام ليبرهن لهم أن هذه الكواكب ليس بعضها أولى من بعض، وكلها متغيرة محتاجة، والرب ليس كذلك، فتبين للقوم ما أراد من غير جهة العناد والمبادأة بالتنقص والعيب.

وعندما نتدبر الآيات من أولها إلى آخرها نتدرك أنه عليه السلام كان محاورا ومناظرا وليس ناظرا كما قد يظن البعض، فقوله: «هذا ربي» كان يقصد به التسليم الجدلي، والمناظر قد يُسلَّم المقدمة الباطلة تسليما جدليا ليقنع خصمه بذلك، فهو من باب الفرض وإرخاء العنان مجاراة مع قومه ليستدل بذلك على فساد قولهم ومعتقدهم ثم يكرّ عليه بالإبطال، ولذلك تدرج في محاجتهم، فقال مرة: «**لا أحب الآفلين**» ثم قال: «**لأكوننّ من القوم الضالين**»، لأن ما رأى لا يصلح للربوبية، وهذه مبالغة في النِصّفة، وفي ذلك تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلها وهو نظير الكوكب في الأفول فهو ضال[1].

قال ابن المنيِّر: والتعريض بضلالهم هنا أصرح وأقوى من قوله أولا: « لا أحب الآفلين»، وإنما ترقى عليه السلام إلى ذلك لأن القوم قدقامت عليهم بالاستدلال الأول حجة فأنسوا بالقدح في معتقدهم، .. ثم ترقى في النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم والتصريح بأنهم على شرك حين تمَّ قيام الحجة عليهم وظهر الحق[2].

وقد بين الله تعالى في كتابه أن إبراهيم قد أوتي رشده منذ الصغر فقال:

---

١ – الرازي، التفسير الكبير، ٥٢/١٣، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٥٢/٧. ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق سيد صقر، دار التراث، ط٢، ص: ٣١٢ . الزمخشري، الكشاف، ج٣١/٢.

٢ – ابن المنير، الانتصاف من الكشاف – بحاشية الكشاف – ج٣١/٢.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ (الأنبياء/٥١-٥٢).

ثم إن الله تعالى قد بين قبل أن يذكر محاجة إبراهيم لقومه أنه كان من الموقنين، ثم أردف هذه الآيات بقوله: « **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه**» ولم يقل على نفسه، فعُلم أن هذه المباحثة والمناظرة إنما جرت مع قومه لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد.

قال ابن كثير: «وقد اختلف المفسرون في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير: من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر واختاره ابن جرير مستدلا بقوله «لئن لم يهدني ربي» الآية.

والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظرا لقومه مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل وهي الكواكب السيارة....

وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظرا في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ (الأنبياء/٥١-٥٢)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل/١٢٠ - ١٢٣).

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: (كل مولود يولد على الفطرة).

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال: (قال الله إنيخلقت عبادي حنفاء...)[1]، فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ناظرا في هذا المقام بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب مما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرا»[2].

وإبراهيم عليه السلام – أراد أن يوصل رسالة إلى قومه من خلال هذا الحوار مفادها: أن الرب العظيم الخالق لهذا الكون المستحق للعبادة لا يمكن أن يتمثل في قمر أو كوكب أو شمس يعتريها الأفول والتغير، وهي أكبر من بعضها البعض فليس شيء منها بأحق في العبادة، إن الرب الخالق هو من أبدع هذه الكواكب وسيرها وهو الذي لا تدركه الأبصار ولا يغيب عن عقول المؤمنين وقلوبهم، إنه الموجود في فطرة كل إنسان لم يتأثر بواقع البيئة وعوامل الانحراف، (**قال يا قوم إني بريء مما تُشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين**).

وقد بين ابن كثير أن موعظة إبراهيم ومناظرته بخصوص الكواكب كانت لأهلحرّان فإنهم كانوا يعبدونها، وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام، وهم الذين ناظرهم في عبادتها وكسرها عليهم وأهانها وبين بطلانها[3].

المقام الثاني: مع أبيه: قال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾

١ –صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم: ٢٨٦٥.

٢ – ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج٢/٢٠٢.

٣ – ابن كثير، قصص الأنبياء، ص/١٥٧.

يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ (مريم: ٤١ – ٤٦).

يلاحظ كيف كان إبراهيم –عليه السلام– في تلطفه وحسن خطابه مع أبيه الكافر، ومناداته لأبيه بقوله: «**يا أبت**»، وكيف أشعره برحمته عليه وشفقته في قوله: «**إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً**»، وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة في حوارهم للآخرين: رحماء يفيض كلامهم بالود والنصيحة، وأنهم ليس لهم هدف في دعوة الناس سوى إنقاذهم من الضلال وإرشادهم إلى الصراط المستقيم

فكان جواب أبيه قاسيا مفعمًا بالاستغراب والدهشة: « **أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم..**»

فقابل نصح ابنه له ودعوته للتوحيد بالإصرار على ادعاء إلهية الأصنام جهلا وتقليدا، وقابل وعظه ورفقه بالسفاهة حيث هدده بالرجم والهجر، أشبه جواب قومه: « وما كان جواب قومه إلا أن قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم..»

وقوله تعالى في صدر الآية: «**واذكر في الكتاب...**» لأن محمدا –ﷺ– ما كان هو ولا قومه ولا أهل بلدته مشتغلين بالعلم ومطالعة الكتب، فإذا أخبر عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك إخبارا عن الغيب ومعجزا قاهرا دالا على نبوته[١].

المقام الثالث: مع النمرود وقومه:

وهو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ

١– الرازي، التفسير الكبير، ج٢١/٢٢٢.

﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾ البقرة: ٢٥٨.

وفي هذا المقام تتضح حقيقة الحكمة والأسلوب الأمثل في الدعوة والحوار، حيث إن إبراهيم عليه السلام – لم يخاطب النمرود كما خاطب قومه أو كما خاطب أباه وذلك لأن الملك كان يدعي الربوبية، فلا يناسب المقام أن يكلمه بإثبات بطلان ألوهية الكواكب، إنما يناسب المقام أن يحاوره في بطلان كونه إلها، فلكل مقام مقال.

وفي هذا المقام نجد أن النمرود صدر منه في معارضة كلام إبراهيم عليه السلام أنه يحيي ويميت ليبرهن على صحة دعواه بالربوبية، وكان منه كما ذكر أهل التفسير[1] أنه أحضر رجلين فقتل أحدهما وأرسل الآخر، فقال: قد أحييت هذا وأمتّ هذا، فسلّم له إبراهيم تسليم الجدل وانتقل معه من المثال وجاءه بأمر لا مجاز فيه، وهو تحديه بالإتيان بالشمس من المغرب، «فبُهِتَ الذي كفر»، ولهذا صدّر الله تعالى الآية الحاكية للحوار بقوله: « **ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه..**»، وهذا فيه معنى التعجب.

قال القرطبي تعليقا على هذه الآيات: «هذه الآية تدل على إثباتالمناظرة والمجادلة وإقامة الحجة، وفي القرآن والسنة من هذا كثير لمن تأمله، قال الله تعالى: (**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)**.. فهو كله تعليم من الله عز وجل السؤال والجواب والمجادلة في الدين، لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل إلا بظهور حجة الحق ودحض حجة الباطل»[2].

وقد استدل ابن حزم بالآية السابقة على أن المحاجة والمناظرة واجب على الدعاة عند الحاجة إليها لدحض الباطل وإظهار الحق حيث أمرنا الله

---

١ – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج٣/٢٨٦.

٢ –المرجع السابق، الموضع نفسه .

تعالى باتباع ملة إبراهيم بقوله: (**فاتبعوا ملة إبراهيم**)آل عمران /٩٥، ومن ملة إبراهيم المحاجة والمناظرة لإظهار الحق[١].

حوار موسى عليه السلام مع قومه:

تكرر في كتاب الله تعالى ذكر قصة موسى عليه السلام لما فيها من العبر والحكم، وكذا ما فيها من آيات الله منذ كان موسى صغيرا ألقي في البحر فأنجاه الله تعالى، مرورابتربيته في بيت فرعون وعناية الله به، ثم ما حصل له في مدين إلى أن أوحى الله إليه وأمره أن يأتي فرعون بصحبة أخيه هارون ويدعوه إلى اللهعز وجل(فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى)، والقول اللين يقتضي أن يكون هناك حوار ومخاطبة عقلانية تؤدي إلى الإقناع، وقد قص الله علينا بعضا من الحوار الذي دار بين موسى وفرعون، فقال في كتابه: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾إلى أن قال سبحانه:
﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الشعراء/٢٣-٣٣).

وهذا الحوار تضمن علما وحُججا داحضة بأسلوب عقلاني مقنع: فقول فرعون: «**وما رب العالمين**» فهم منه موسى أنه يسأل عن الجنس وماهية الرب جل وعلا، ورب العالمين لا يُسأل عن ماهيته لأن الأجناس والماهيات محدثة، ولأنه تعالى «ليس كمثله شيء» ولأنه الأول فلا شيء قبله ليكون منه، بل هو مكوِّن الأشياء، فلم يشتغل موسى برد سؤاله وبيان فساده، بل لجأ إلى الجواب الحكيم بذكر الصفات الدالة على الله تعالى من مخلوقاته التي لا يشاركه فيها مخلوق حيث كان المقصود تعريف صفة الرب جل وعلا وبيان ربوبيته واستحقاقه للعبادة...

---

١ - ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج١/١٦.

فقال: (**ربُّ السماوات والأرض وما بينهما**) فحصر الكائنات المعلومة في ثلاث كلمات، فقال فرعون: (**ألا تستمعون**)، وهذا يضمن معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة في نظر فرعون، حيث كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم، والفراعنة قبله كذلك، فزاد موسى في البيان فقال: (**ربكم ورب آبائكم الأولين**)، وهذا فيه رد على قول فرعون في موضع آخر: «**أنا ربكم الأعلى**»، وهو دليل يفهمه الناس عن موسى لأنهم يعلمون أن قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا، وأنه لا بدّ لهم من مغيِّر وأنهم قد كانوا قبل أن يكونوا، وأنهم لا بدّ أن يكون لهم مكوِّن، فلما قال فرعون على جهة الاستخفاف: (**إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون**) أردف بذكر شاهدين آخرين فقال: (**ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما**) لأن المشرق والمغرب آيتان عظيمتان لا يقدر فرعون على ادعائهما، وإشارة إلى أن ملك فرعون محصور وأن الله تعالى مالك الملك[1].

فلما اندحضت حجته قال: (**لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين**)، رجع إلى الاستعلاء والتغلب فتوعد موسى بالسجن، (**قال أو لو جئتك بشيء مبين؟ قال فأتِ به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه**..).

وكل ذلك يدل على تلطف موسى وطمعه في إيمانه، والاستمرار في حواره لعل وعسى دون يأس، وهذا مفيد لكل محاور في استنفاذ كل الوسائل الممكنة لإقناع الآخر مع الالتزام بالحكمة واللطف، وهو منهج اتبعه جميع الأنبياء في حوار أقوامهم لأن الهدف هو إنقاذ ا لناس وهدايتهم وإخراجهم من ظلمات الجهل والغفلة والعصبية، ولنا فيهم أسوة حسنة، وقد كان النبي محمد ﷺ خير من يُقتدى به في هذا، ولهذا قال الله تعالى في وصفه وبيان منهجه في دعوة الناس وحوارهم: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ (آل عمران/١٥٩).

---

١ – القرطبي، الجامع لأحكامالقرآن، مرجع سابق، ج١٣/٩٨.

ابن الحنبلي، استخراج الجدل من القرآن الكريم، مرجع سابق، ص٤٦.

المبحث الرابع - محاورة الله – تعالى – لعباده

عند تدبر كتاب الله تعالى نجده مملوءا بالخطاب الموجه للعباد ليبين لهم مقصد خلقهم وآيات ربوبيته وإبداعه في هذا الكون العظيم، وكذا دلائل صدق النبي فيما جاءهم به من البينات والآيات، إضافة إلى ذكر أدلة البعث والنشور وغير ذلك مما تضمنه الكتاب العزيز، وأذكر هنا نماذج من ذلك لبيان استعمال القرآن لأسلوب الحوار المتضمن دلائل الحق في تفهيم العباد ومخاطبة عقولهم، ولهذه نجد كثيرا من المواضع في كتاب الله تعالى فيها بيان للحق وتوجيه لطريق الهداية، ثم يعقبها مثل قوله تعالى: (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) (لقوم يتفكرون) (إنما يتذكر أولو الألباب)، ونحو ذلك، وعند تدبر الآيات التي فيها محاورة للعباد نحد أن القرآن الكريم قد اتبع ثلاثة أساليب وهي:

أولا: طلب الإثبات:

أي طلب الحجة والبرهان والعلم الذي يفيد اليقين في الادعاء ومن أمثلة ذلك: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة/١١١).

فإذا لم يقدم اليهود أو النصارى برهانا على قولهم فهذا القول ما هو إلا أمنية يتمناها اليهود والنصارى بغير حق، ثم إن الله تعالى بين للناس من الذي يستحق دخول الجنة، فقال: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة/١١٢).

وفي معرض الرد على المشركين يحاورهم الله تعالى ويطلب البرهان: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ النمل/ ٦٤

ويستمر طلب البرهان ويطرد في الدنيا والآخرة، لتتم العدالة: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ

شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ (القصص/٧٥).

ثانيا: نقض الفرض:

أي البرهان على خلاف الادعاء بعد الافتراض أنه صحيح، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ** ﴾ (**البقرة/٢٣**).

فهذه الآية فيها تحد واضح وصريح، هدفه تكذيب الكفار فيما ادعوه من التشكيك بصحة النبوة وصدق الرسول، فإن كانوا يشكون في أن هذا القرآن كلام الله أنزله على رسوله فليأتوا بسورة من مثله وهم أهل الفصاحة والبيان، وليدعوا من يشهد لهم بهذا من دون الله، فشهادة الله كافية بصدق رسوله وصحة دعواه، «وكفى بالله شهيدا»

وهذا التحدي ما يزال قائما، وهو حجة واضحة ودليل دامغ لا سبيل إلى التغاضي عنه والمهاترة فيه بعد أن عجز عن ذلك فصحاءالعرب مع توفر الدواعي لإبطال دعواه، ولو أن قريشا أو غيرها جاءوا بمثل هذا القرآن لانهارت حجية القرآن ولكنه لم يقع مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ** ﴾ البقرة: ٢٤

ثالثا: البيان:

وهو بتقرير القول الصحيح أثناء تفنيد القول الخاطئ والرد عليه، لأن الأفكار الضالة تتبدد عند ذكر الأقوال الصحيحة المؤيدة بالأدلة والبينات ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (الإسراء /٨١).

وفي الفقرات التالية نماذج عديدة لآيات كريمة فيها حوار من الله تعالى لعباده، فيه براهين وتقرير للقول الصحيح و الرد على الأقوال الخاطئة:

أولا: ذكر الأدلة على وجوده تعالى:

والقرآن الكريم أشار إلى أن معرفة وجوده تعالى أمر فطري يدركه كل عاقل، ويحس به الإنسان في ساعات الخوف: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (الروم/٣٠).

لكن الإنسان قد تغلب عليه الغفلة أو تنحرف به الوساوس، أو تؤثر فيه البيئة الفاسدة الملحدة، فيحتاج الأمر إلى إيقاظ الفطرة في نفسه من خلال لفت النظر إلى الآيات الكونية والنفسية: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات/٢٠-٢١): ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ .. ﴾ يونس /١٠١.

والأمور التي لفت القرآن النظر إليها كثيرة، فمنها قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (الغاشية/١٧-٢١).

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (**الرعد**/٣-٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة/١٦٤).

وقوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (النمل /٦٠-٦٤).

وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ (٥٨) ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾ (الواقعة/٥٧-٥٨).

وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ (٦٨) ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ﴾ (الواقعة/٦٩).

وقوله تعالى: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾ (الطور/٣٥).

فالمتدبر في هذه الآيات يجد أنها تعنيه وتحاوره، وأنها خطاب من الله تعالى له من أجل النظر في ملكوت الله والتفكر والتدبر، ليزداد المؤمن إيمانا، وليراجع الكافر نفسه ولتستيقظ فطرته.

ويُلاحظ استعمال القرآن في ختام ما يذكره من آيات كونية لجملة: (**إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**)، وهو خطاب لكل عاقل ليتدبر ويفهم، وفيه تكريم للعقل البشري، وكذا قوله تعالى: (**أفرأيتم..**) أليس هو خطاب مباشر للعباد لينظروا ويتفكروا؟.

وتدبر كيف ختم آيات سورة النمل التي اشتملت على حوار متسع شامل بقوله: (**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**)، بعد أن عدد عليهم نعمه وآياته البديعة وعنايته بخلقه ومع ذلك يُشركون به: أإله مع الله؟!

ثانيا: ذكر الأدلة على وحدانية الله تعالى:

اشتمل الكتاب العزيز على جملة من الآيات الكريمات التي تدل على وحدانية الله تعالى بأسلوب منطقي مبني على حجج عقلية الهدف منها استثارة لتفكير لدى من يسمعها وإلزامه بما تدل عليه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء/٢٢).

وهذا الدليل يستعمله علماء التوحيد، ويُسمّى دليل التمانع، بمعنى أنه يمتنع أن يكون للوجود أكثر من إله، لأنه لو فُرض ذلك- وهو محال- لأدّى إلى فساد الكون لحصول المغالبة والتنازع بينهم.

وهذا دليل عقلي منطقي يصدقه واقع الوجود، فالكون في غاية الانسجام والترابط والتناسق، وهذا كله يدل على الإله الواحد الذي أبدع وأتقن، ولو كان هناك أكثر من إله لهذا الوجود لكان الاختلاف والفساد لاختلاف الإرادات، فلهذا فكل إنسان سليم في فطرته يحسن استعمال عقله يدرك وحدة الإله وتفرده سبحانه[1].

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (المؤمنون /٩١).

وفي الكلام حذف للإيجاز تقديره: ولو كان معه آلهة إذاً لذهب كل إله بما خلق...، وحسن الحذف هنا لئلا يتكرر ذكر الإله لأنه إبطال، على تقدير: وإنما ذهب كل إله بما خلق لأجل طلب الاستعلاء بالعلو والقدرة وذلك منشأ المحالفة والمنافسة والتغالب، والمغلوب لا يكون إلها[2].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (الإسراء/٤٢).

---

١ - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١١/٢٧٨ تفسير الرازي، ج٢٢/١٣٤الآية ٢٢/ من سورة الأنبياء.

٢ - تفسير ابن كثير، دار ا لفكر، ج٣/٣١٠.

ومعناه أن الآلهة تطلب المنازعة والمخالفة في المراد فحينئذ يقع الفساد، إذ يريد أحدهما حياة شخص ويريد الآخر موته، أو يريد أحدهما إسعاده ويريد الآخر إشقاءه.

ثالثا: ذكر أدلة البعث

وهي كثيرة في كتاب الله تعالى، جاءت بأسلوب حواري عقلي يذكر الإنسان بمبدأ خلقه، ويرشده إلى ما يقرب البعث إلى فهمه، فمنها قوله تعالى:

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ (مريم/٦٦-٦٧).

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (يس/٧٧).

ثم ذكر الله سبحانه شبهة بعض الكفرة فقال: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾، فجاء الجواب من وجهين، أحدهما جدلا يتضمن فساد شبهته من جهة أنه استبعد الإعادة والحياة في عظام حيوان وترك نفسه، وذلك أهم من إحياء الحيوان البهيم لأن إيجاد الحيوان البهيم لأجل الإنسان.

الوجه الثاني: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ..﴾ فإن إيجاد المبادئ أصعب في مطرد العرف وحكم العقل من رد شيء كان إلى ما كان ...

ثم قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾.

معناه: إيجاد شيء مما ينافيه وينافره فلا بدّ من قوة من خارج تغلب على المتنافرين المتنافيين بفعل ذلك.

ثم قال سبحانه: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، معناه: من قدر على خلق السماوات والأرض

قدر على خلق هذا النوع اللطيف والشكل الضعيف، وإذا قدر على إيجاده قدر على رده بعد نفاذه...

- **ومن أدلة البعث**: قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾**الروم/٢٧**.

وإنما قال سبحانه: «**وهو أهون عليه**» ضَرْبُ مثل، لأن المقدورات عندنا متفاوتة في العسر واليسر باختلاف القدرة التي تزيد وتنقص في حقنا، ولما كان إيجاد شيء لا من شيء مستحيلا منا، وإيجاد شيء من شيء ممكنا استعار له كلمة أفعل، ضرب ذلك مثلا، ولما استحال في حقه العجز والضعف عن إيجاد شيء لا من شيء قال: «وله المثل الأعلى» وذلك مطرد في سائر صفاته سبحانه.

ومن أدلة البعث قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فصلت/٣٩).

ولما لم يكن لمنكري البعث إلا مجرد التعجب والاستبعاد قال الله تعالى:

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (الرعد/٥).

ومعنى ذلك: إن كان لك عجب من شيء فاعجب من إنكارهم البعث، لأن العجب مما ندر وجوده وخفي سببه، وليس هذا مما ندر، وهم يشاهدون إحياء الأرض بعد موتها واكتساء الأشجار بعد عُريها وعَوْد النهار بعد زواله، والليل بعد ذهابه، وإخراج الحي من الميت، والميت من الحي؛ وليس البعث مما خفي سببه، فإن الله سبحانه هو الفاعل لذلك والمخترع له والقادر عليه، وحكمته إظهار ما استتر على خلقه من تدبيره، وما النشأة الثانية بأعجب من الأولى، وقد قال بعض الحكماء: ثبت أن الله تعالى حكيم،

والحكيم لا ينقض ما بنى إلا لحكمة أتمَّ من حكمة النقض[1].

رابعا: ذكر أدلة النبوة:

احتوى القرآن الكريم على أدلة كثيرة تثبت أن هذا القرآن ما كان أن يُفترى من دون الله تعالى، وأنه تنزيل من عزيز حميد، وقد تنوعت هذه الأدلة في مضمونها وأسلوبها، والذي يهمنا منها في هذه الدراسة ما كان فيه محاجة ومحاورة بطريقة مباشرة، وإليك بعضا منها:

١-التحدي بالإتيان بمثل القرآن أو بسورة منه:

القرآن الكريم في كل سورة منه دليل على صدق رسالته ﷺ ، لمكان العجز عن الإتيان بمثلها، مع أن القرآن جاء بلغة عربية واضحة(بلسان عربي مبين)، والعرب قد برعوا في البلاغة والبيان، وافتخروا بذلك، فجاءهم التحدي من جنس ما برعوا فيه ليكون التحدي أوضح وأقعد...

وقد ورد التحدي بذلك في الكتاب العزيز في خمسة مواضع، من ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة/٢٣).

الموضع الثاني: في قوله عز وجل: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ **(الإسراء/٨٨)**.

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (هود/١٣).

الموضع الرابع: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (يونس/٣٨).

الموضع الخامس: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴾ (الطور/٣٣-٣٤).

---

١ - ابن الحنبلي الأنصاري، استخراج الجدل من القرآن، مرجع سابق، ص: ٥٤.

والآيات المذكورات جميعها خطاب من الله تعالى لعباده يبرهن فيها أن القرآن كلام الله تعالى وليس من كلام البشر ولا ينبغي أن يكون، ولذلك تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، فَلَمّالم يستطيعوا: ثَبُتَ لكل عاقل أن هذا القرآن تنزيل من رب العالمين.

٢- قوله تعالى - مخاطبا اليهود: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة/٩٤-٩٥).

وهذا دليل واضح وحجة قاطعة على اليهود، فلو لم يعلموا أنهم إن تمنوه ماتوا لكانوا تمنوه، فيحاجوا الرسول به ويبطلوا نبوته، وكان ذلك أهم الأشياء عندهم.

ومعلوم أن الحبيب يحرص على لقاء حبيبه ولا يكره لقاءه، والابن لا يكره لقاء أبيه، لا سيما إذا علم أن كرامته مختصة به، فحيث لم يتمن لقاءه، فإن ادعاء الولاية والمحبة كذب و مجرد دعوى باطلة ...

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الجمعة/٦-٧).

يعتقد اليهود أن لهم عند منزلة عالية متقدمة (**أبناء الله وأحباؤه**)، وأنهم شعب الله المختار، بما يفهم منه تلميحا وتصريحا أنهم وحدهم الناجون عند الله، وهم وحدهم المهتدون، ومن أهدافهم في ذلك زعزعة إيمان الموحدين من أتباع دين الإسلام، لهذا جاء الخطاب الرباني يحاورهم في تلك الدعوى(فتمنوا الموت إن كنتم صادقين)، وقد أخبر الباري أنهم لن يستجيبوا لهذا التحدي الملزم لأنهم يعلمون أنهم كاذبون في دعواهم وهم أحرص الناس على الحياة، فكيف يتمنون الموت؟!

فلو لم يعلموا أنه رسول الله وخبره صدق وحق لبادروا إلى ما يبطل دعواه ويكذب خبره بتمني الموت، ونظير ذلك قولهم: (**نحن أبناء الله وأحباؤه**)

فرد عليهم الباري بقوله: ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَ﴾ (المائدة /١٨)- يعني أن الأب لا يعذب ابنه، والحبيب لا يعذب حبيبه.

قال ابن القيم: وفي ضمن هذه المناظرة معجزة باهرة للنبي ﷺ وهي أنه في مقام المناظرة مع الخصوم الذين هم أحرص الناس على عداوته وتكذيبه، وهو يخبرهم خبرا جَزْما أنهم لن يتمنوا الموت أبدا، ولو علموا من نفوسهم أنهم يتمنونه لوجدوا طريقا إلى الرد عليه، بل ذلّوا وغُلبوا وعلموا صحة قوله، وإنما منعهم من تمني الموت معرفتهم بما لهم عند الله من الخزي والعذاب الأليم بكفرهم بأنبيائهم وقتلهم لهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ .

فإن قيل فهلا أظهروا التمني وإن كانوا كاذبين فقالوا: فنحن نتمناه؟، قيل: وهذا أيضا معجزة أخرى، وهي أن الله تعالى حبس عن تمنيه قلوبهم وألسنتهم، فلم تُرِده قلوبهم، ولم تنطق به ألسنتهم، تصديقا لقوله تعالى: (ولن يتمنوه أبدا)[1].

٤-قوله تعالى: مخاطبا المنافقين والمتشككين: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ (**النساء/٨٢**).

والآية مخاطب بها كل جيل وكل فرد عنده قدرة على التدبر والفهم ليدرك من ظاهرة عدم الاختلاف الذي نفاه القرآن أنه تنزيل من حكيم حميد.

والتدبر المذكور في الآية معناه مزيد النظر والتمعن والتفكر، فالآية تنعي على المنافقين أنهم لا يتفكرون ولا يتأملون في القرآن مما أدى لجهلهم حقيقة الرسالة وكنه هدايتها، فبالتدبر يعرفون أنه الحق من ربهم، وبدون ذلك لا يعرفون خصائصه ومزاياه وأن أحدا من الخلق لا يقدر عليه لما فيه من التوافق في معانيه ومبانيه.

---

١ -ابن القيم، إرشاد القرآن والسنة إلى طريق المناظرة، ص: ١٢٢.وانظر: ابن الحنبلي الأنصاري، استخراج الجدل، ص: ٥٤.

وقوله: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾، أي لو كان من كلام البشر كما يزعم الكفار والمنافقون، والمراد بالاختلاف التناقض في معانيه والتباين في نظمه، فلا يوجد في القرآن اختلاف كثير ولا قليل لأنه من عند الله تعالى.وعجيب نظم القرآن وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة على ما فيه من قصص ومواعظ وحِكم وأحكام وإعذار وإنذار ووعد ووعيد[1].

قال الفخر الرازي: اعلم أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى احتج بالقرآن على صحة نبوة محمد ﷺ إذ لو لم تُحمل على ذلك لم يبق لها تعلق بما قبلها البتة»[2].

والآية فيها دليل على الأمر بالنظر و الاستدلال، والأخذ بالدليل والحجة والبرهان، وبطلان التقليد في حق من هو أهل للتدبر والاستدلال والاستنباط وفهم النصوص[3].

كما أن في الأمر بالتدبر تكريم للإدراك البشري والعقل الإنساني، حيث يفهم من الآية أن الله تعالى عرض على البشر الاحتكام في أمر القرآن إلى إدراك عقولهم، وبما أن لكل جيل فهمه وقدراته ووسائله فقد تنوعت أدلة القرآن الدالة على صدق النبي ﷺ.

خامسا: محاورة أهل الكتاب

جاء في الكتاب العزيز مواضع كثيرة فيها محاورة لأهل الكتاب، وهذه المحاورات فيها ذكر لشبهاتهم وأقوالهم المجانبة للصواب ثم الرد عليها

---

١ -الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق سيد صقر، دار المعارف، مصر، ص٣٦-٣٨، ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ج٢/١٤٤، الآلوسي، روح المعاني، دار الفكر، بيروت، ط١، ج٥/٩٢.

٢ - التفسير الكبير، (مفاتيح الغيب)، طهران، ط٢، ج١٠/١٩٦.

٣ - البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، حيدر آباد الدكن، الهند، ط١، ج٥/٣٤٠.

ببيان خطأها وبعدها عن الحق، وفي هذا تعليم لنا أن نتعرف الشبهات والأقوال المخالفة، ثم نبين خطأها بطريق الحوار والمنطق، إزالة للشبهة وإقامة للحجة كما أمرنا الله تعالى «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن» .

وقد سبق بعض الأمثلة التي تصلح لهذا المبحث في المبحث السابق، ونضيف هنا ما يلي:

١- **قوله تعالى:** ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة /٨٠).

فذكر الشبهة والدعوى كما هي، وهي قول اليهود: إنهم لن يدخلوا النار إلا تحلّة القسم عدة أيام، وهي الأيام التي عبدوا فيها العجل، ثم أردف ذلك ببيان بطلانها، وهذه الآية فيها أن اليهود جزموا بأن الله تعالى لا يعذبهم إلا أساما قليلة، وهذا لا سبيل إليه بالعقل ألبتة، فلا طريق إلى معرفة ذلك إلا بالدليل السمعي، والعهد في هذا الموضع يجري مجرى الوعد والخبر، وإنما سمّى خبره سبحانه عهدا لأن خبره أوكد من العهود المؤكدة منا بالقسم والنذر، فالعهد من الله لا يكون إلا بهذا الوجه.

وقوله: « أتخذتم» ليس باستفهام، بل هو إنكار لأن المراد التنبيه على طريقة الاستدلال، وهي أنه لا سبيل إلى معرفة هذا التقدير إلا بالنقل، فلما لم يوجد الدليل النقلي، وجب ألا يجوز الجزم بهذا التقدير[١] .

قال ابن القيم – موضحا المراد من قوله تعالى في هذا الخطاب: (**أم تقولون على الله ما لا تعلمون**): «فهذا مطالبة لهم بتصحيح دعواهم، وهذه المطالبة تتردد بين أمرين لا بدّ من واحد منهما، وقد تعين بطلان أحدهما فلزم ثبوت الآخر، فإن قولهم: (**لن تمسنا النار إلا أياما معدودة**)

١-الرازي، التفسير الكبير، ج٣/١٤٤.

خبر عن غيب لا يُعلم إلا بوحي، فأما أن يكون قولا على اللّه بلا علم فيكون كاذبا، وإما أن يكون مستندا إلى وحي من اللّه وعَهْد عَهِده إلى المخبر، وهذا ممتنع قطعا، فتعين أن يكون خبرا كاذبا، قائله كاذب على اللّه تعالى»[1].

٢- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ **(البقرة /١١١)**.

هذه دعوى من كل أحد من الطائفتين أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهما، فقالت اليهود لا يدخلها إلا من كان هودا، وقالت النصارى لن يدخلها إلا من كان نصرانيا، فجاء الكلام مختصرا أبغ اختصار وأوجزه مع أمن اللبس ووضوح المعنى، فقد طالبهم اللّه تعالى بالبرهان على صحة الدعوى فقال، (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) وهو المسمَّى سؤال المطالبة بالدليل، فمن ادعى دعوى بلا دليل يقال له: هاتِ برهانك إن كنت صادقا فيما ادعيت[2].

وقوله تعالى: «قل هاتوا برهانكم» متصل بقوله: «لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى»، وتلك أمانيهم « اعتراض، وقد قال النبي الكريم ﷺ: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على اللّه الأماني»[3].

وفي الآية:

- أهمية البرهان، وأن الدليل على المدعي .
- أنه تعالى لما نفى أن يكون لهم برهان أثبت أن لمن أسلم وجهه للّه برهانا .

---

١ - ابن القيم، إرشاد القرآن والسنة إلى طريق المناظرة..ص: ١١٢ .

٢ - ابن القيم، إرشاد القرآن والسنة إلى طريق المناظرة.. ص: ١٢٤.

٣- الترمذي في جامعه، كتاب القيامة، باب ٢٥، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ٣١، وأحمد في المسند ج٤/١٢٤.

- الآية فيها ترغيب لليهود وغيرهم للدخول في الإسلام، كأنه قيل لهم: أنتم على ما أنتم عليه لا تفوزون بالجنة، بل إن غيرتم طريقكم وأسلمتم وجهكم لله وأحسنتم فلكم الجنة[1].

٣- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (البقرة /١١٦-١١٧).

نجد هنا أن الله تعالى ردّ عليهم دعواهم له اتخاذه الولد ونزه نفسه عنه، ثم ذكر أربع حجج على استحالة اتخاذه الولد:

أحدها: كون ما في السماوات والأرض ملكا له، وهذا ينافي أن يكون فيهما ولد له لأن الولد بعض الوالد وشريكه، فلا يكون مخلوقا له مملوكا له، لأن المخلوق مملوك مربوب، عبد من العبيد، والابن نظير الأب، فكيف يكون عبده تعالى ومخلوقه ومملوكه بعضه ونظيره، فهذا من أبطل الباطل، وقد أكد مضمون هذه الحجة بقوله: (**كل له قانتون**)، فهذا تقرير لعبوديتهم له، وأنهم مملوكون مربوبون ليس فيهم شريك ولا نظير ولا ولد، فإثبات الولد من أعظم الإشراك به، فإن المشرك به جعل له شريكا من مخلوقاته، مع اعترافه بأنه مملوك،.. كما جعل يعض المشركين الملائكة بناته فقال تعالى: (**وجعلوا له من عباده جزءا**) الزخرف/١٥، فإذا كان له ما في السماوات والأرض عبيد قانتون مربوبون مملوكون، استحال أن يكون له منهم شريك، وكل من أقرّ بأن لله ما في السماوات والأرض لزمه أن يقول بالتوحيد ولا بد، ولهذا يحتج سبحانه على المشركين بإقرارهم بذلك كقوله: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (**المؤمنون/ ٨٥**)[2].

١- الرازي، التفسير الكبير، ج٤/٣.

٢ -ابن القيم، إرشاد القرآن والسنة.. ص: ١٢٧.

الحجة الثانية: قوله تعالى: (**بديع السماوات والأرض**).

وهذه من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه، ولهذا قال تعالى في سورة الأنعام:

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ ﴾ أي من أين يكون لبديع السماوات والأرض ولد؟! ووجه تقرير هذه الحجة أن من اخترع هذه السماوات والأرض – مع عظمهما وآياتهما – وفطرهما وابتدعهما فهو قادر على اختراع ما هو دونهما، ولا نسبة له إليهما البتة، فكيف يُخرجون هذا الشخص بالعين عن قدرته وإبداعه، ويجعلون نظيرا وشريكا وجزءًا مع أنه تعالى بديع العالم وفاطره وبارئه، فكيف يعجزه أن يوجد هذا الشخص من غير أب حتى يقولوا: إنه ولده، فمن نسب الولد إلى الله فما عرف الرب تعالى ولا آمن به، فظهر أنه هذه الحجة من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه.

الحجةالثالثة: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

وتقرير هذهالحجة أن من كانت قدرته كافية في إيجاد ما يريد إيجاده بمجرد أمره وقوله(كن) فأيّ حاجة به إلى الولد؟! وهو لا يتكثر به من قلة ولا يتعزز به، ولا يستعين به، ولا يعجز عن خلق ما يريد خلقه، وإنما يحتاج إلى الولد من لا يخلق ولا إذا أراد شيئا قال له كن فيكون، وهذا المخلوق العاجز المحتاج الذي لا يقدر على تكوين ما أراد.

وقد أوضح ابن القيم كفاية الحجج السابقة على بطلان ما نسبه إليه أهل الضلال ثم قال: «فالحمد لله الذي أغنى عباده المؤمنين بكتابه وما أودعه من حججه وبيناته عن شقاشق المتكلمين وهذيانات المتهوكين، فقلد عظمت نعمة الله على عبد أغناه بفهم كتابه عن الفقر إلى غيره، ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ (العنكبوت/٥١)»[١].

١– المرجع السابق، ص: ١٣١.

٣- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾.

فأُجيبوا عن هذه الدعوى بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة /١٣٥).

وهذا الجواب مع اختصاره قد تضمن المنع والمعارضة، أما المنع فما تضمنه حرف «بل» من الاضراب، أي ليس الأمر كما قالوا، وأما المعارضة ففي قوله: (**ملة إبراهيم حنيفا**)، وفي ضمن هذه المعارضة إقامة الحجة على أنها أولى بالصواب مما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية، لأنه وصف صاحب الملة بأنه حنيف غير مشرك، ومن كانت ملته الحنيفية والتوحيد فهو أولى بأن يُتبع ممن ملته اليهودية والنصرانية، فإن الحنيفية والتوحيد هي دين الأنبياء الذي لا يقبل الله من أحد سواه، وهو الفطرة التي فطر الله عليها عباده، فمن كان عليها فهو المهتدي، لأن من كان يهوديا أو نصرانيا فإن الحنيفية تضمن الإقبال على الله بالعبادة ولإجلال والتعظيم والمحبة والذل...

والتوحيد يتضمن إفراده بهذا الإقبال دون غيره فيُعبد وحده ويحب وحده ويُطاع وحده، ولا بجعل معه إله آخر، فمن أولى بالهداية صاحب هذه الملة أو ملة اليهودية والنصرانية؟!

ولا يبقى بعد هذا للخصوم إلا سؤال واحد وهو أن يقولوا: فنحن على ملته أيضا لن نخرج عنها، وإبراهيم وبنوه كانوا هودا أو نصارى، فأجيبوا عن هذا السؤال بأنهم كاذبون فيه، وأن الله تعالى قد علم أنه لم يكن يهوديا أو نصرانيا، فقال تعالى:

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ (البقرة /١٤٠).

وقرر تعالى هذا الجواب في سورة آل عمران بقوله:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران /٦٧-٦٨).

فإن قالوا: فهب أن إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا فنحن على ملته وإن انتحلنا هذا الاسم، فأجيبوا عن هذا بقوله تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة /١٣٦) ، فهذه للمؤمنين

ثم قال: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾، يعني إن لم أتوا بإيمان مثل إيمانكم فليسوا من إبراهيم وملته في شيء وإنما هم في شقاق وعداوة[1].

٤- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة /١٤٢).

هذا سؤال من اليهود أوردوه على المؤمنين، ومضمونه أن القبلة الأولى إن كانت حقا فقد تركتم الحقّ، وإن كانت باطلا فقد كنتم على باطل، فأجاب اللّه تعالى عنه بجواب شاف بعد أن ذكر قبله مقدمات تقرره وتوضحه، والسؤال من جهة اليهود أوردوه على صور متعددة ترجع إلى شيء واحد، فقالوا ما تقدم، وقالوا: لو كان نبياً ما ترك قبلة الأنبياء قبله، وقالوا: لو كان نبيا ما كان يفعل اليوم شيئا وغداً خلافه .

وقال المشركون: قد رجع إلى قبلتكم فيوشك أن يرجع إلى، وقال أهل الكتاب، لو كان نبيا ما فارق قبلة الأنبياء، وكثر الكلام وعظمت المحنة على

١- ابن القيم، إرشاد القرآن والسنة...، ص: ١٣٤ .

بعض الناس، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ (البقرة: ١٤٣).

قال ابن القيم: وتأمل حكمة العزيز الحكيم ولطفه وإرشاده في هذه القصة لما علم أن هذا التحويل أمر كبير كيف وطّأه ومهّده وذلّله بقواعد قبله، فذكر النسخ وأنه إذا نسخ شيئا أتى بمثله أو خير منه، وأنه قادر على ذلك فلا يُعجزه، ثم قرر التسليم للرسول وأنه لا ينبغي أن يُعترض عليه ويُسأل تعنتا كما جرى لموسى مع قومه، ثم ذكر البيت الحرام وتعظيمه وحرمته وذكر بانيه، وأثنى عليه وأوجب اتباع ملته، فقرر في النفوس بذلك توجهها إلى البيت بالتعظيم والإجلال والمحبة، وإلى بانيه بالاتباع والموالاة والموافقة.

وأخبر تعالى أنه جعل البيت مثابة للناس يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرا، فالقلوب عاكفة على محبته، دائمة الاشتياق إليه متوجهة إليه حيث كانت، ثم أخبر أنه أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للطائفين والقائمين والمصلين، وأضافه إليه بقوله: (**أن طهّرا بيتي**)، وهذه الإضافة هي التي أسكنت في القلوب من محبته والشوق إليه ما أسكنت، وهي التي أقبلت بأفئدة العالم إليه، فلما استقرت هذه الأمور في قلوب أهل الإيمان وذُكِّروا بها فكأنها نادتهم أن استقبلوه في الصلاة، ولكن توقفت على ورود الأمر من رب البيت، فلما برز مرسوم: (**فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام**) تلقاه رسول الله ﷺ والراسخون في الإيمان بالبشرى والقبول، وكان عيدا عندهم، لأن رسول الله ﷺ كان كثيرا ما يقلب وجهه في السماء ينتظر أن يحوله الله عن قبلة أهل الكتاب، فولاه الله القبلة التي يرضاها.

وتَلَقَّى ذلك الكفارُ بالمعارضةوإيراد الشبهات الداحضة، وتلقاه الضعفاء من المؤمنين بالإغماض والمشقة، فذكر تعالى أصناف الناس عند الأمر باستقبال الكعبة، وابتدأ ذلك بالتسلية لرسوله وللمؤمنين عما يقول السفهاء من الناس فلا تعبأوا بقولهم فإنه قول سفيه، ثم قال: (**قل لله**

المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)[1].

وهذا الجواب مضمونه: أن الجهات كلها لله تعالى، فلا يستحق شيء منها لذاته أن يكون قبلة، بل إنما تصير قبلة لأن الله تعالى جعلها قبلة، وإذا كان الأمر كذلك فلا اعتراض عليه بالتحويل من جهة إلى جهة أخرى.

وقد ذكر الفخر الرازي الحكمة من تحويل القبلة إلى الكعبة، وملخصه ما يلي:

١- ما وقر عند الناس أن إبراهيم عليه السلام بنى هذا البيت، فكانت المصلحة في التوجه إليه، لأن الناس عند استقباله تكون أشد تعظيما وخشوعا .
٢- لما كان هذا البيت سببا لظهور دولة الإسلام كانت رغبة الناس في تعظيمه أشد.
٣- مخالفة اليهود الذين كانوا يدعون أنهم أرشدوا المؤمنين إلى القبلة .
٤- الكعبة هي منشأ محمد ﷺ فتعظيم الكعبة يقتضي تعظيمه، ومتى رسخ تعظيمه في القلوب كان قبولهم لأوامره في الدين أسرع التميُّز عن اليهود[2].

سادسا: محاورة المشركين:

١- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل /١٠٣).

كان من ضمن الافتراءات التي أطلقها المشركون: ادعاؤهم أن النبي ﷺ تلقي القرآن وتعلمه من غلام نصراني رومي كان عبدا لبعض سادة قريش، وقد فنّد القرآن هذه الفرية، بإثبات خلافها: (**لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين**).

١- ابن القيم، إرشاد القرآن والسنة..ص: ١٣٥-١٣٦.

٢- الرازي، التفسير الكبير، ج٤/٩٦.

وقد تضمن الجواب:

أن القرآن إنما كان معجزا لما فيه من الفصاحة والبيان العائد إلى اللفظ، وكأنه قيل: هب أنه يتعلم المعاني من ذلك الأعجمي، إلا أن القرآن إنما كان معجزا لما في ألفاظه من الفصاحة، فبتقدير أن تكونوا صادقين في أن محمدا يتعلم تلك المعاني من ذلك الرجل، إلا أنه لا يقدح ذلك في المقصود، إذ القرآن إنما كان معجزا لفصاحته، وما ذكرتموه لا يقدح في ذلك المقصود[1].

وبعبارة أخرى: هل هذا الغلام الأعجمي أفصح أم محمد؟، فإن تجاسروا وقالوا الغلام الرومي أفصح فقد كذبوا وخرجوا من الواقع والمعقول وتهربوا من المحاورة، لأنهم أهل الفصاحة والبلاغة ولم يأتوا بمثل هذا القرآن.

وإن قالوا محمد أبلغ وأفصح بطل ادعاؤهم بأن محمدا يتعلم من الغلام الرومي، إذ لا يتصور أن يتعلم الشخص ممن هو أقل منه علما.

ولذلك أردف القرآن الحجة السابقة بقوله: (إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون) ، والدليل على كونهم كاذبين:

أولا: أنهم لا يؤمنون بآيات الله وهم كافرون، وشهادة الخصم غير مقبولة.

وثانيا: أن التعلم لا يتأتى في جلسة واحدة ولا يتم في الخفية

وثالثا: أن العلوم الموجودة في القرآن كثيرة، وتعلمها لا يتأتى إلا إذا كان المعلم في غاية الفضل والتحقيق، فلو حصل فيهم إنسان بلغ في التعليم والتحقيق إلى هذا الحد لكان مشارا إليه بالأصابع في التحقيق والتدقيق[2].

١-الرازي، التفسير الكبير، ج٢٠/١١٨.

٢- الراي، التفسير الكبير، ج٢/١١.

٢- قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (النجم/١٩- ٢٥).

لما ذكر الله تعالى الوحي إلى النبي ﷺ وذكر آثار قدرته وبعض آيات ملكوته، حاجّ المشركين إذ عبدوا ما لا يعقل، وقال: أفرأيتم هذه الآلهة التي تعبدونها وبعدها عن هذه القدرة والصفات العلية أوحين إليكم شيئا كما أُوحي إلى مجمد ، وهل نفعت أو ضرت حتى تكون شركاء لله، ثم قال على جهة التقريع والتوبيخ: (**ألكم الذكر وله الأنثى**) رداً على قولهم: الملائكة بنات الله والأصنام بنات الله.

وقوله تعالى: (**تلك إذا قسمة ضيزى**)أي جائرة عن العدل مائلة عن الحق.

وقوله: (**إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم**): أي ما هي هذه الأوثان إلا حجارة منحوتة اخترعتموها وسميتموها آلهة، (**أنتم وآباؤكم**): أي قلدتموهم في ذلك[1]، ولم ينزل الله بها برهان ولا حجة.

والخطاب في الآيات يراد به توهين وإبطال ما هم فيه من الشرك ونسبة البنات إلى الله تعالى، فصيغة السياق تشير إلى إبطال قولهم بنفس القول، كما أن ضعيفًا إذا ادعى الملك ثم رآه العقلاء في غاية البعد عما يدعيه يقولون: انظروا إلى هذا الذي يدعي الملك، منكرين عليه غير مستدلين بدليل لظهور أمره.

فلذلك قال: (**أفرأيتم الاّت والعزى!!**) أي كما هي، فكيف تشركون بالله؟!!

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٧/١٠١-١٠٣.

وكيف جعلتم لله البنات وقد اعترفتم في أنفسكم أن البنات مكروهات والبنون مستحسنون محبوبون، والله كامل العظمة فالمنسوب إليه كيف جعلتموه مكروها ناقصا، وأنتم في غاية الجهل والذلة حيث جعلتم أنفسكم أذل من خمار وعبد ثم صخرة وشجرة، ثم نسبتم إلى أنفسكم المحبوب المستحسن، فهذه القسمة جائرة على طريقتكم أيضا حيث أذللتم أنفسكم ونسبتم إليها الأحسن– في زعمكم– من الثقلين، وأبغضتم البنات ونسبتموهن إلى الأعظم وهو الله تعالى كما قال في موضع آخر: (**ويجعلون لله ما يكرهون**)، وكان على عادتكم أن تجعلوا الأعظم للعظيم والأنقص للحقير، فإذا أنتم خالفتم الفكر والعقل والعادة التي لكم[1].

٣- وصف القرآن حالة المشركين النفسية تجاه الرسول ﷺ حيث كان موقفهم انفعالياً فجعلوا يردون بالتهم والتعجب ليريحوا أنفسهم من عناء التفكير بالاتكاء على التقليد:

﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴾ (ص: ٤-٧)

فكان الجواب هادئا منطقيا، حيث طلب منهم إبداء الدليل على ما هم عليه من شرك:

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (الأحقاف:٤)

ولما عجز المشركون عن إقامة الدليل، إذ مستندهم التقليد وإتباع الظن أقام الدليل عليهم: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ

١، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، – تفسير المحرر الوجيز، تحقيق عبد العال السيد، ط١، قطر، ج١٤/١٠٠ ، الرازي، التفسير الكبير، ج٢٨/٢٩٧.

ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢١-٢٤) .

﴿ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴾ (الإسراء: ٤٢).

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون: ٩١).

وما تقدم من الآيات تتضمن دليلا عقليا منطقيا يسميه العلماء دليل التمانع، وملخصه أنه لو كان هناك أكثر من إله كما يقول المشركون لحصل بينهما التنازع والخصام حيث يريد كل إله أن يعلو على الآخر وتكون له السيطرة، وهذا سيؤدي إلى فساد الكون، ولما كان الكون بديعا منظما محكما دل ذلك على أنه من تدبير إله واحد قدير بديع خبير سبحانه وتعالى.

وقد اهتم القرآن بإيراد الدليل العلمي والعقلي لإبطال مُدَّعاهم، ولم يكتف بذلك بل أردفه في كثير من المواضع بأدلة حسية مادية من الواقع تثبت ضلالهم وخطأ اعتقادهم: ﴿ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (الأعراف: ١٩١-١٩٥).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾ (الحج: ٧٣).

وما تقدم إنما هو نماذج مما جاء في كتاب الله في حوار المشركين تظهر فيها بوضوح استعمال القرآن للمنطق العقلي والعلمي في حوارهم، وكيف أن القرآن يرد عليهم في أمور هي من البدهيات لكن دعوة الناس إلى الحق والهدى تقتضي المجاراة والتلطف وإعطاء منتهى حرية التفكير والتدبر؛ فقد قابل توترهم وردهم العنيف بالدعوة إلى إبداء الدليل العلمي، فإذ عجزوا عنه أقيم عليهم الدليل الحسي والواقعي على بطلان دعواهم، وكل هذا لأن الاعتقاد لا بد له من حرية الاختيار دون إكراه أو ضغط﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ..﴾.

المبحث الخامس: ذكر الأسئلة والأجوبة الحوارية (الجدلية) في القرآن الكريم:

القرآن الكريم مملوء بالحوار والمحاجة وإلزام الخصوم، وقد تنوعت الأساليب التي استعملها القرآن في مقام الرد والإقناع والتفهيم، يحكي القرآن ذلك أحيانا على لسان عباده ليقر من خلال ذلك ما يرده من حجة وإقناع بأسلوب منطقي مفحم، والبعض يسمي ذلك بالجدال ولا مشاحة في الاصطلاح، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (العنكبوت/٤٦)، فليكن الجدال المبني علي الخطاب العقلاني والحوار الهادئ المعتمد على الحجة والمنطق.

وعند تدبر آيات الكتاب في المواضع التي جاء فيها حوار ومحاجة ورد على المشركين أو المنافقين نجد أنواعا من الأسئلة والأجوبة الحوارية فمنها:

١-سؤال المنع:

مثاله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ (البقرة/١١-١٢).

فهذه مناظرة جرت بين المؤمنين والمنافقين فكان جواب المنافقين: لا نسلم أنا مفسدون لأن الإصلاح ضد الفساد، فإذا ادعوا الإصلاح فقد أنكروا الإفساد، ثم مُنعوا هذه الدعوى بقوله تعالى: (ألا إنهم هم المفسدون).

وقد سجل القرآن هنا على المنافقين عدة أمور وهي: تكذيبهم، والإخبار بأنهم مفسدون، وحصر الفساد في قوله «هم المفسدون»، ثم وصفهم بغاية الجهل وهو أنهم لا يشعرون بأنهم يفسدون.

وفي هذا جواز استعمال المنع من طريق المعنى دون مراعاة صيغة لفظ الطرف المجادِل.

وفساد المنافقين المقصود بالآيات: هو إظهار المعاصي، وبعدهم عن منهج

الله تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (محمد/٢٢).

ومن فساد المنافقين مداهنتهم للكافرين وموالاتهم بحجة صلة القربى مما يوهم ضعف الرسول وأنصاره، فكان ذلك يُجرِّئ الكفرة على إظهار عداوة الرسول ﷺ وفي ذلك فساد عظيم، وكذلك كانوا في السر يدعون إلى تكذيبه وجحد الإسلام وإلقاء الشُّبَهِ ويتظاهرون بالإصلاح[1].

ومثله قوله تعالى –حاكيا عن الكفار حين قالوا لرسل عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (يس/١٩-٢٠)، أي شؤمكم منكم لا منّا، ودليله أنكم جعلتم التذكير بالله وبعبادته علة الشؤم (بل أنتم قوم مسرفون) حيث تجعلون من يُتبرك به كمن يُتشاءم به، وتقصدون إيلام من يجب في حقه الإكرام، أو مسرفون حيث تكفرون ثم تصرون بعد ظهور الحق بالمعجز والبرهان[2].

٢-سؤال النقض:

-في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (آل عمران/١٨٣).

معناه: العلة التي توجب عندكم الإيمان بالرسل قد وُجدت فلم قتلتموهم؟!، فدل على جواز إيراد ما يدل على خطأ كلام الخصم على أي وجه كان.

- **ومن صور النقض**: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ نقضه بقوله: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا

١- راجع: ابن الحنبلي، استخراج الجدل من القرآن الكريم، مرجع سابق، ص٤٨.
عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز، ج١/ ١٦٧، الرازي، التفسير الكبير، ج٢/٦٦ .
٢- ابن الحنبلي، استخراج الجدل من القرآن، ص٤٥الرازي، التفسير الكبير، ج٢٦/٥٤.

يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ (البقرة/ ١٧٠).

الضمير للناس، وعدل بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالهم، لأنه لا أضل من المقلد، كأنه يقول للعقلاء: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون.

وقوله(أَوَ لَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئا..) الهمز بمعنى الرد والتعجب، ومعناه: أيتبعونهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا من الدين ولا يهتدون للصواب[1].

- **ومن صور النقض أيضا** قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ (التوبة/١١٣).

ولما كان إبراهيم قد استغفر لأبيه وهو مشرك في قوله تعالى: (**سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا**)، وكان هذا قد يوهم أنه نقض لتحريم الاستغفار للمشرك كان الجواب: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾ (التوبة/ ١١٤).

قال الزمخشري: فإن قلت كيف خفي على إبراهيم أن الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعده؟ قلت: يجوز أنه ظن أنه ما دام يُرجى منه الإيمان جاز الاستغفار له، على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر إنما علم بالوحي، لأن العقل يجوِّز أن يغفر الله للكافِر، ولهذا قال النبي ﷺ لعمه أبي طالب: (أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنه عن ذلك)[2].

فإن قلت: ما معنى قوله: « **فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه**»؟.

قلت: معناه: فلما تبين له من جهة الوحي أنه لن يؤمن وأنه يموت كافرا

١- الزمخشري، التفسير، تحقيق عادل أحمد الرياض، ط١، ج١/٣٥٦.

٢- صحيح البخاري/ رقم١٢٩٤، صحيح مسلم ج١/٥٤.

انقطع رجاؤه عنه فقطع استغفاره، فهو كقوله تعالى: «**من بعد ما تبين له أنه من أصحاب الجحيم**»[1].

٣- سؤال القول بالموجب:

في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ (إبراهيم/١٠-١١)، تقديره: يريد أن يصدَّكم عما كان يعبد آباؤكم، ثم قال: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ... ﴾.

فالرسل عليهم السلام سلموا بقول أقوامهم بأنهم بشر مثلهم، ويعنون أنهم مثلهم في البشرية وحدها، فأما وراء ذلك فما كانوا مثلهم ولكنهم لم يذكروا فضلهم تواضعا منهم واقتصروا على قولهم: « ولكن اللّه يمن على منيشاء من عباده» يعني الرسالة التي اختصوا بها واصطفاهم اللّه لها لما علم من فضلهم وما فيهم من خصائص...

- **ومن ذلك قوله تعالى:** ﴿ **ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾ (التوبة/٦١).

والأذن هو الرجل الذي يصدق كل ما يسمع، ويقبل قول كل أحد، سُمّي بالجارحة التي هي آلة السماع، كأنّ جملته أُذنٌ سامعة .

وإيذاؤهم له هو قولهم فيه: «**هو أُذن**»، فرد اللّه عليهم بتسليم ذلك، فقال: «**قل أُذن خير لكم**» كقولك رجل صدق، كأنه قيل: نعم هو أُذن ولكن نِعْم الأُذن، أو هو أُذن في الخير والحق، وفيما يجب سماعه وقبوله، ثم فسّر كونه أُذن خير بأنه يُصدّق باللّه، ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار، وهو رحمة لمن آمن منكم أي أظهر الإيمان أيها المنافقون، حيث يسمع منكم ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم ولا يفضحكم،

١- الزمخشري، التفسير، ج٣/٩٨-٩٩.

ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين، مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم، فهو أُذن كما قلتم، إلا أنه أُذن خير لكم لا أُذن سوء، فسلّم لهم قولهم فيه، لا أنه فسّر بما هو مدح له وثناء عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته وشهامته وأنه من أهل سلامة القلوب والغِرّة[١].

٤-سؤال المعارضة:

في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ (البقرة/٢٣).

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ (هود/١٣)، وغيرها، وذلك أنه جعله دليلا على نبوته، والدليل متى عورض بمثله بطل عمله فيسقط الاحتجاج به.

والذي يُستخلص من كل ما تقدم: أن القرآن الكريم أرشد إلى منهج الحوار ورسّخ أهميته من خلال استعماله له لتحقيق أهدافه وأغراضه في الإقناع والوعظ وإيصال الفكرة وأن من يتضلع من الثقافة القرآنية إنما يتضلع من الثقافة الحوارية.

١- الزمخشري، التفسير، ج٣/٦١.



الفصل الثالث

الحوار في السنة النبوية

وآثاره الدعوية والتربوية والتعليمية

بُعث النبي ﷺ رحمة للعالمين ومبلغا عن الرب الكريم، ومبينا للناس ما نزِّل إليهم، وكان النبي ﷺ يهتدي بهدي القرآن ويستنير بنوره، و يواجه ما يثيره خصومه من أهل الشرك وأهل الكتاب وأهل النفاق من شبهات وجدال ومعارضات، فكان يجيبهم بما يفتح الله عليه مستعينا بما ينزل من القرآن من إجابات فيها القول الفصل والحق المبين، وكان حريا به ﷺ أن يتخلق بأسلوب القرآن في قوة الحجة ولطف الخطاب وإظهار النِصّفة، وكان أحق البشر بذلك، وقد وصفته السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سُئلت عن خُلقه، فقالت للسائل: (**ألست تقرأ القرآن؟!، قال: بلى، قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن**)[1].

وقد زكّاه الله تعالى وأثنى عليه غاية الثناء في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم/٤)، وقد أوتي النبي ﷺ جوامع الكلم وكان أفصح الناس، وهذه كلها عوامل جعلت منهج النبي ﷺ في حوار المشركين وأهل الكتاب وغيرهم من الناس في غاية القوة والبراعة والأسلوب الأمثل، فكان كما أراد الله تعالى له قدوة الأنام والسراج المنير والرحمة المهداة.

ولهذا يجد المتأمل علاقة قوية بين حوار القرآن وحججه وبين الحوار النبوي، وذلك لأن النبي ﷺ اتبع الأسلوب القرآني في إيراد الحجج والخطاب والمناظرة الهادفة إلى الإقناع والتأثير بالمنطق والحكمة، وهو أجدر الناس باتباع قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (النحل/١٢٥).

وفي السنة النبوية غُنية وكفاية في معرفة مشروعية الحوار وأساليبه والتأكيد على أسسه وآدابه لتحقيق المقاصد الدعوية والتربوية والثقافية..

١ - صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، ج١/٥٣١، رقم ١٣٩.

أولا: استعمال المنطق ولفت النظر إلى الحس المشاهد وحقائق الكون.

١- روى البخاري أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: إنَّ امرأتي ولدت غلاما أسود، وإني أنكرته..فقال له النبي ﷺ ألَكَ إبل؟

قال: نعم، قال: فما لونها؟ قال: سود، قال: هل فيها من أورق؟قال: نعم، قال: فأنّى له ذلك؟ قال: عسى أن يكون نزعه عرق! قال: وهذا عسى أن يكون نزعه عِرق»[١].

الرجل جاء غاضبا مستنكراً، وسبب ذلك: الجهل بسنة الله في خلقه، فلم يكن سوى المحاورة للإقناع مع لفت النظر للحس والمشاهدة، ليقارن ويعرف الحقيقة.

قال ابن القيم: « كيف تضمن هذا الوصف الذي لا تأثير له في الحكم وهو مجرد اللون ومخالفة الولد للأبوين فيه، وإن مثل هذا لا يوجب ريبة، وإن نظيره في المخلوقات مُشاهد بالحس، والله خالق الإبل وخالق بني آدم وهو الخلاق العليم، فكما أن الجمل الأورق قد يتولد من بين أبوين أسودين فكذلك الولد الأسود قد يتولد من بين أبوين أبيضين، وإن ما جوَّز به من ذلك هو بعينه قائم في بني آدم»[٢].

٢-روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(لا عدوى ولا صفر ولا هامة)، فقال أعرابي: ما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء، فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها؟! قال: فمن أعدى الأول؟»**[٣].

١ - صحيح البخاري، ط استنبول، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب من شبه أصلا معلوما بأصل مبين ج٨/ ١٥٠ .

٢ - ابن القيم، إرشاد القرآن والسنة إلى طريق ا لمناظرة، ص: ٨٨.

٣ - صحيح البخاري، كتاب الطب، باب لا صفر، ج٧/١٩.

صحيح مسلم، كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة، رقم ٢٢٢٠ واللفظ له.

بين ابن القيم رحمه الله كيف أن هذه الكلمة الوجيزة المختصرة اشتملت على إبطال الدور والتسلسل، بينما نجد أن بعض أهل العلم يتعب نفسه كثيرا في إثبات ذلك[1].

ثانياً: استعمال الإقناع والتذكير بأسس الحق والخير:

-روى البخاري عن أبي حميد الساعدي: استعمل رسول الله ﷺ رجلا على صدقات بني سُليم يُدعى ابن اللُّتَبيَّة، فلما جاء حاسبه، فقال: هذا لكم وهذا هدية، فقال رسول الله ﷺ: (**فهلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا..**)[2].

فقد بين النبي الكريم هنا بأسلوب الحوار أن العمل هو سبب الهدية لأنه لو جلس في بيت أبيه وأمه لانتفت الهدية، وإنما وجدت بسب موقعه في العمل فهو علتها...

- روى أبو داود عن النعمان بن بشير: «**أن أباه نحله نُحْلا، وأنه أتى النبي- ﷺ- فقال له: إني نحلت ابني النعمان نُحْلا، وإن عَمْرة سألتني أن أُشهدك على ذلك، قال: فقال: ألك ولد سواه؟قال: نعم ، قال: فكلهم أعطيتَ مثل ما أعطيت النعمان؟قال: لا .فقال: أليس يسرك أن يكونوا لك في البر سواء؟ قال: نعم ، قال: فأشهد على هذا غيري**»[3].

هذا الحديث يدلك على أن النبي الكريم أراد من خلال الحوار معرفة حقيقة الأمر ليكون الحكم مطابقا للواقع، ثم بيان ما حصل من الجور في العطية بأسلوب السؤال والجواب، حتى توصل إلى أن هناك تفضيلا بين الأولاد، وتضمن الحكم بيان الوصف الداعي إلى شرع التسوية بين الأولاد، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، فتأمل كيف بين النبي الكريم

---

١ - ابن القيم، إرشاد القرآن والسنة.. ص: ٨٠.

٢ - صحيح البخاري، كتاب الحيل، باب احتيال العامل ليهدى له، ج٧/٦٦ .

٣ - سنن أبي داود، كتاب البيوع، باب في الرجل يفضل بعض ولده.. ج٣/٨١١، رقم٣٥٤٢.

حب الإنسان أن يبره كل أولاده لينتقل بذلك إلى إقناع السائل إلى أن ما قام به مخالف للإنصاف، وأنك كما تدين تدان.

-روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي أمامة: (**أن غلاما شابا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أتأذن لي في الزنا؟ فصاح الناس، فقال ﷺ قرّبوه، أدنُ، فدنا حتى جلس بين يديه، فقال: ﷺ: أتحبه لأمك؟فقال: لا، جعلني الله فداك .فقال: « كذلك الناس لا تحبه لأمهاتهم «.أتحبه لأختك؟ قال: لا، قال: كذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم، .. وذكر العمة والخالة، وهو يقول: لا، جعلني الله فداك، وهو يقول: «وكذلك الناس لا يحبونه»، ثم وضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: «اللهم طهّر قلبه واغفر ذنبه وحصّن فرجه»، فلم يكن شيء أبغض إليه منه ، يعني الزنا**[1] .

هذا الحوار النبوي في توجيه الشاب المذكور يُعد معلما تربويا ومنهجا دعويا وأسلوبا حكيما في توجيه الشباب وإيثار الإقناع العقلي في معرفة الصحيح من الخطأ في التصرفات، مع ربط ذلك بسنن المجتمع وأعراف الناس، وإيقاظ الفطرة في النفس ببعث الشهامة والغيرة في النفس، ثم إيقاظ حب العدالة في التصرفات(أتحبه لأمك؟) (أتحبه لأختك؟) ، فقد عزف النبي الكريم هنا عن أسلوب الوعظ المباشر أو النهي الجازم إلى الحوار الهادئ الذي خاطب فيه عقله وقلبه حتى أيقن رجوعه إلى رشده، وهكذا ينبغي لكل داعية أن يتوقع مثل هذه الأسئلة سواء ممن يجهل الإسلام، أم ممن لا يقيم وزنا لأحكام الله، فالكل بحاجة للحوار والإقناع العقلي، والتذكير بأسس الخير والعدالة والشهامة.

١- مسند أحمد، المكتب الإسلامي، ط١، ج٥/٢٦٥ .

ثالثا: بسط الأسئلة وتشويق الحاضرين لمعرفة الجواب:

- أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر: أن النبي ﷺ قال: **(إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، حدثوني ما هي؟**

قال: فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: فوقع في نفسي أنها النخلة

ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: هي النخلة)[1].

ذكر البخاري هذا الحديث في باب: طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم، من كتاب العلم، وهذا يدل على حسن استنباط الإمام البخاري ودقة فهمه، ويريد بذلك بيان أن الرسول المعلم «لم يلقِ عليهم هذه الحقيقة إلقاءً تقريريا: إن المسلم مثل النخلة، بل أراد أن يستثير دفائن ما عندهم ويلفتهم إلى ملاحظة ما حولهم، ويشركهم معه في البحث، وبهذا لا يصبح المتعلم مجرد جهاز تسجيل ينفعل ولا يفعل، ويتلقى ولا يفكر، بل هو كائن حي عاقل يبحث وبفكر ويحاور ويخطئ ويصيب»[2].

- ونظير ذلك ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(ما تعدُّون الشهيد فيكم؟ قالوا: يا رسول الله من قتل في سبيل الله فهو شهيد . قال: إن شهداء أمتي إذا لقليل. قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: من قُتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد).**

قال ابن مقسم -أحد رواة الحديث- أشهد على أبيك في هذا الحديث أنه قال: «**والغريق شهيد**»[3].

---

١ - صحيح البخاري، كتاب العلم، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم، ج١/٢٢.

٢ - يوسف القرضاوي، الرسول والعلم، مؤسسة الرسالة، ط١، ص: ١٥١.

٣-صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء، ج٣/١٥٢١، رقم ١٦٥.

رابعاً: الترغيب والترهيب بإيراد الأسلوب الحواري:

- محاورة الله تعالى للملائكة وما فيها من ترغيب على فعل الطاعات:

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لله ملائكة يطوفون في الطُرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلمُّوا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء، الدنيا، قال: فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك .قال: فيقول: هل رأوني؟قال: فيقولون: لا والله ما رأوك. قال: فيقول كيف لو رأوني؟! قال: يقولون لو رأوك كانوا أشد لك تمجيدا وأكثر لك تسبيحا. قال: يقول فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول وهل رأوها؟ قال: يقولون لا والله يارب ما رأوها. قال: يقول فكيف لو أنهم رأوها؟! قال: يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا، وأعظم فيها رغبة. قال: فممَّ يتعوذون؟ قال: يقولون من النار.قال: وهل رأوها؟ قال: يقولون لا والله ما رأوها.

قال: يقول فكيف لو رأوها؟!قال: يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة. قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم.

قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم[1].

قال الحافظ ابن حجر: ويُؤخذ من مجموع هذه الطرق المراد بمجالس الذكر، وأنها التي تشتمل على ذكر الله بأنواع الذكر الواردة من تسبيح وتكبير وغيرهما وعلى تلاوة كتاب الله سبحانه وعلى الدعاء بخيري الدنيا والآخرة... وفي الحديث فضل مجالس الذكر والذاكرين، وفضل الاجتماع

١- صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل، ج٧/١٦٨.

على ذلك، وأن جليسهم يندرج معهم في جميع ما يتفضل الله تعالى به عليهم إكراما لهم ولو لم يشاركهم في أصل الذكر، وفيه محبة الملائكة لبني آدم واعتناؤهم بهم، وفيه أن السؤال قد يصدر من السائل وهو أعلم بالمسؤول عنه من المسؤول لإظهار العناية بالمسؤول عنه والتنويه بقدره، والإعلان بشرف منزلته، ... وفيه أن الذي اشتملت عليه الجنة من أنواع الخيرات، والنار من أنواع المكروهات فوق ما وصفتا به...»[1].

قلت: هذه الفوائد المستنبطة من هذا الحديث إنما برزت بطريقة لافتة للانتباه بسبب الأسلوب الحواري الذي وردت به وكان الهدف التأكيد على أهمية مجالس الذكر والدعاء والرغبة إلى الله تعالى، مما يجعل القارئ يتشوق لمتابعة السؤال والجواب حتى يخلص إلى النتيجة الرائعة في المغفرة لهؤلاء الصالحين وللجالس بدون قصد بفضل بركة جلسائه.

خامساً: بسط مفاهيم جديدة وتصحيح المفاهيم الشائعة بأسلوب حواري:

وهذا أسلوب يستخدمه الرسول الكريم للتشويق وإثارة الانتباه، أن يسألهم عن بعض المصطلحات المعروفة عندهم، فيجيبوه بما هو مشهور بينهم من معانيها، وعند ذلك يبادر إلى تفسيرها لهم بإعطائها المدلول الحقيقي، تنبيها لهم على المعاني الحقيقية للأشياء بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهي معاني قد لا يلتفت إليها البعض، ولكنها عند النبي ﷺ أحق أن تُفهم بما يذكره للناس، وهو خير من يستنبط وخير من يعرف ما ينفع الناس ويصلحهم، فمن ذلك:

- **أخرج البخاري، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من بركات الأرض. قيل: وما بركات الأرض؟ قال: زهرة الدنيا. فقال له رجل: هل يأتي الخير**

١- ابن حجر، فتح الباري، المطبعة البهية المصرية، ط بدون، ج١١/١٧٨.

بالشر؟ فصمت النبي ﷺ حتى ظننا أنه يُنزل عليه، ثم جعل يمسح جبينه، فقال: أين السائل؟ فقال: أنا. قال أبو سعيد: لقد حمدناه حين طلع ذلك. قال: لا يأتي الخير إلا بالخير، إن هذا المال خَضرةٌ حلوةٌ، وإن كلَّ ما أنبت الربيعُ يقتل حَبَطا أو يُلِمُّ إلا آكلة الخَضِرة أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت، ثم عادت فأكلت، وإن هذا المال حُلوة من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع»[1].

المفهوم الجديد لمعنى بركات الأرض أن كثيرا من الناس يظن أن زهرة الدنيا نعيم وزينة وخير دائم يحسد صاحبه عليه، وقد جرت عادة الناس على الاطمئنان للنعيم والركون إليه، لهذا قال السائل: وهل يأتي الخير بالشر؟! متعجبا، فأراد المصطفى ﷺ بيان أن زهرة الدنيا قد تكون فتنة وسببا في الضلال والفرقة والتحاسد، فينبغي الحذر منها والتحرز من حرامها وشبهاتها والاقتصار على أخذ المال بحقه ووضعه في حقه حتى لا يكون نقمة على صاحبه.

- أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أُخذ من خطاياهم فُطرحت عليه ثم طُرِح في النار»[2].

المفهوم الجديد هنا لمعنى الإفلاس هو انتقاص الحسنات بسبب التعدي على حقوق العباد بالشتم أو سفك الدماء أو مس أعراضهم ونحو ذلك

١- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يُحذر من زهرة الدنيا، ج٧/١٧٢ ، ومسلم في الزكاة، رقم ١٢١ .

٢- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، حديث رقم ٥٩، ج٤/١٩٩٧ .

مما يكون القصاص فيه يوم النشور، ونلاحظ كيف أن النبي الكريم مهّد لهذا المفهوم ببسط السؤال واستماع الجواب، ثم بيان الصواب بطريقة حوارية تفصيلية أكدت اهتمام الشريعة بسلامة دماء الناس وأموالهم وأعراضهم، وأنها مصونة، وأن التعدي عليها يورث الخزي والندامة يوم القيامة.

- **وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة –رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال لأصحابه: (ما تعدون الصُرَعة فيكم؟) قالوا: الذي لا تصرعه الرجال، قال: (ليس كذلك، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب)**[1].

وهنا يبين الرسول الكريم حقيقة القوة، وأن قوة الجسد، وإن كانت مطلوبة ومحمودة، لكنها لا تجدي عندما تضعف النفس وتسيطر عليها نزعة الغضب فيصدر عن الإنسان ما لا تحمد عقباه من القول والفعل، فالقوة الحقيقية هي قوة النفس والقدرة على كظم الغيظ والصبر مقابل استفزاز الآخرين.

وانظر كيف عبّر الرسول الكريم ﷺ عن كل ذلك بأوجز عبارة وألخص إشارة ولفت انتباههم إلى المفهوم الحقيقي المحمود للقوة.

- **محاورة النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لترسيخ مفهوم التوحيد:**

أخرج البخاري في صحيحه: عن معاذ بن جبل قال: بينما أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل، فقال: يا معاذ، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ، قلت لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل، قلت لبيك رسول الله وسعديك.قال: هل تدري ما حق الله على عباده؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا. ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ بن جبل. قلت: لبيك رسول الله وسعديك.قال: هل

١- صحيح مسلم، تحقيق محمد عبدالباقي، كتاب البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه: ج٤/ ٢٠١٤ رقم١٠٦.

تدري ما حق العباد على اللّه إذا فعلوه؟ قلت: اللّه ورسوله أعلم. قال: حق العباد على اللّه أن لا يعذبهم[1].

ففي هذا الخبر يظهر أن النبي ﷺ أراد أن يوصل معلومة مهمة تتعلق بأمر الاعتقاد إلى صحابي معروف بفضله وبفقهه، فاختار النبي أسلوب الحوار من خلال السؤال والجواب، بعد أن مهّد لذلك بتشويقه لما سوف يقال له عندما ناداه ثلاث مرات: «يا معاذ»، وهو يقول له: لبيك رسول اللّه وسعديك، حتى قال له: «هل تدري ما حق اللّه على العباد؟

ونلحظ أدب معاذ وحسن جوابه برد العلم إلى اللّه ورسوله فيما لا يعلم حقيقته، وكذا تشوقه لمعرفة الجواب، وفي تكرار الكلام بأسلوب حواري يظهر الهدف من إيصال المعلومة وتأكيدها، وفيه استفسار الشيخ تلميذه عن الحكم ليختبر ما عنده ويبين له ما يشكل عليه منه[2].

وهذا كله أبلغ وأجدى من طرح المعلومة مباشرة بأسلوب التلقين.

- ومن ذلك: ما رواه زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صلى بنا رسول اللّه ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم، قالوا: اللّه ورسوله أعلم.

قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مُطرنا بفضل اللّه ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مُطرنا بنوّء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب[3].

فهذا الحوار يقصد به تنبيه الناس على قضية عقدية مهمة وهي نسبة الفضل إلى اللّه تعالى والتحذير من مخلفات الجاهلية في اعتقاد تأثير الكواكب، وأنها السبب في نزول المطر وغير ذلك من أحوال العباد، والتغليظ

١- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من جاهد نفسه في طاعة اللّه، ج٧/١٨٩.

٢- ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، المطبعة البهية، مصر، ١٣٤٨ هـ، ج١١/٢٨٤.

٣- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كفر من قال مُطرنا بالنوء، ج١/٨٣، رقم ١٢٥.

في الزجر عن ذلك بإطلاق كلمة الكفر على من يعتقد ذلك ولكونه من اعتقادات الكفار التي لا تليق بالمؤمنين.

«وفي سؤاله ﷺ «هل تدرون ماذا قال ربكم» تشويق للسامع وترغيب له في معرفة الجواب، وفي هذا تعليم للصحابة وشحذ لهم واستفادة من الواقع الذي يمرون به وهو نزول المطر لتوجيههم إلى العقيدة السليمة الصافية، وهي رد الأمور إلى الله تعالى وليس للسنن الكونية التي لا تملك لنفسها أو لغيرها ضرا ولا نفعا، فالمطر ينزل بفضل الله ورحمته، وهذا هو الإيمان الصحيح ولا علاقة للأنواء بخلقه وتسييره»[١].

- محاجة آدم لموسى والهدف الواضح في ترسيخ مفهوم القدر.

أخرج الشيخان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(احتج آدم وموسى، فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. قال له آدم: ياموسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدّر الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة، فحجّ آدمُ موسى، ثلاثا»**[٢].

ومعنى حجَّه: غلبه بالحجة، مثل خاصمته فخصمته.

قال العلماء: إن موسى لم يعاتب آدم على الذنب الذي تاب منه، إنما أراد تنبيهه على المصيبة والمحنة التي نالت الذرية بسبب المعصية، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة، وأن هذه المصيبة التي نالت الذرية بسبب الخطيئة كانت مكتوبة بقدر الله قبل خلق آدم، والقدر يُحتج به في المصائب دون المعائب.

١- تيسير الفتياني، الحوار في السنة وأثره في تكوين المجتمع، مركز الكتاب الأكاديمي، الجامعة الأردنية، ط١، ص: ١٥٨.

٢- صحيح البخاري، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله عز وجل، ج٧/٢١٤، ومسلم في القدر، رقم ٢٦٥٢.

وكذلك، فإن ما قد مضى وتاب العبد منه، فإنه لا بأس من الاحتجاج بالقدر على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوة، وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به ففي الحال والمستقبل، بأن يرتكب فعلا محرما أو يترك واجبا فيلومه عليه لائم فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره عليه .

قال ابن القيم: ونكتة المسألة أن اللوم إذا ارتفع صح الاحتجاج بالقدر، وإذا كان اللوم واقعا فالاحتجاج بالقدر باطل[1].

قال ابن عبد البر: إن هذا مخصوص بآدم لأن المناظرة بينهما وقعت بعد أن تاب الله على آدم قطعا كما قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة /٣٧) فحسن منه أن يُنكر على موسى لومه على الأكل من الشجرة لأنه كان قد تيب عليه من ذلك، وإلا فلا يجوز لأحد أن يقول لمن لامه على ارتكاب معصية كما لو قتل أو زنا أو سرق: «هذا سبق في علم الله وقدره عليّ قبل أن يخلقني، فليس لك أن تلومني عليه»، فإن الأمة أجمعت على جواز لوم من وقع منه ذلك بل على استحباب ذلك كما أجمعوا على استحباب محمدة من واظب على الطاعة[2].

فما قصّه النبي ﷺ من الحوار بين آدم وموسى صلوات الله وسلامه عليهما لبيان أن القدر حق، وأن القدر يُحتج به في المصائب وأن الذنب الذي قد تاب منه العبد لايلام عليه، لهذا كان لقص الحوار السابق مغزى واضح أثره عند ظهور الحُجة.

سادساً: الحوار في أسلوب النبي ﷺ وأثره على التحصيل والفهم.

يُعد أسلوب الحوار أهم الأساليب وأبرزها في التعليم والتربية، فهو أسلوب محبب إلى النفس يضفي عليها الحيوية، ويدفع عنها الملل والشرود، ويشد انتباه السامع ويزيد الإقبال على المتابعة، ويجعل الذهن أكثر تفتحا وتجاوبا.

١- ابن القيم، شفاء العليل، ص: ١٨.

٢- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج١١/٤٣٢.

وهو أسلوب أخذ به المعاصرون من رواد التربية، يظهر بين أساليب التدريس مستقلا بنفسه أو في ثنايا الأساليب والطرق الأخرى.

وعند عودة التربويين إلى السنة النبوية سيجدون أنها رائدة في ترسيخ منهج الحوار في التعليم والتربية، وأنه أسلوب حكيم وبصيرة هادية وطريق مقنع اهتم به المصطفى ﷺ لإيصال الحجة وإقناع المتردد وهداية الضال وإزالة الشبهة.

فمن الأساليب النبوية في التربية والتعليم:

١- السؤال والجواب:

فأسلوب الاستفهام له منزلة رفيعة بين أساليب البيان، وله أثر كبير في إيصال المعلومة للمستويات المتفاوتة في الفهم والعقل، وهو مفتاح لإثارة الحوار وإيقاظ الذهن، وقد ورد بكثرة في الكتاب والسنة النبوية، وأسلوب الاستفهام يجمع بين مخاطبة العاطفة والعقل، لما فيه من الأسئلة المتضمنة ألوان الانفعال من تعجب وتقبيح وتوبيخ ووعيد، وقد ذكر الباحثون فوائد كثير لهذا الأسلوب منها:

- إلزام الطرف الآخر على الاعتراف بالأمر الذي يعلمه، وهذا ما يُسمى بالتسليم بالبينة المعروف مسبقا.

- استثارة انتباه السامع وتفتيح ذهنه ليرجع إلى نفسه فيتفكر فيما سئل عنه فيعرف الصواب.

- تشويق السامع لما يتضمنه السؤال من ترغيب.

- الاستفهام يزيد النفي تأكيدا ورسوخا لما فيه من المبالغة وتفخيم الأمر وتعظيمه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ..﴾ (الأعراف /٣٢).

فهذه الآية، بما جاء فيها من أسلوب الاستفهام، تتضمن تنبيه العباد على

أهمية عدم القول على الله بغير علم وأن يتعرفوا الدليل الذي يسوغ لهم العلم، ثم إن في هذا الأسلوب إلزاما لهم على الإقرار بنفي تحريم الطيبات من الرزق.

ومما جاء في السنة من أساليب الاستفهام:

-أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: (أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أُخذ من خطاياهم فُطرحت عليه ثم طُرِح في النار)[1].

وقد استخدم النبي ﷺ السؤال والجواب لدفع المتعلم إلى المشاركة بالأسئلة والاستماع والفهم والتساؤل عما لا يدركه من حقائق، مما يؤدي إلى رسوخ المعلومة واستمرار تذكرها.

ونظير ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال لأصحابه: (ما تعدون الرَّقوب فيكم؟ قال: قلنا الذي لا يولد له.قال: ليس ذاك بالرقوب، ولكنه الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئا. قال: فما تعدون الصُرَعة فيكم؟

قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب)[2].

قال العلماء: أصل الرقوب في كلام العرب الذي لا يعيش له ولد، ومعنى الحديث: إنكم تعتقدون أن الرقوب المحزون، وهو المصاب بموت أولاده،

١- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، حديث رقم ٥٩، ج٤/١٩٩٧.

٢ - صحيح مسلم، تحقيق عبدا لباقي، كتاب البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه، ج٤/٢٠١٤، رقم١٠٦.

وليس هو كذلك شرعا، بل هو من لم يمت أحد من أولاده في حياته فيحتسبه ويكتب له ثواب مصيبته به وثواب صبره عليه ويكون له فرطا وسلفا.

والصُرَعة أصله في كلام العرب الذي يصرع الناس كثيرا، ومعنى الحديث: إنكم كذلك تعتقدون أن الصُرَعة الممدوح القوي هو القوي الذي لا يصرعه الرجال، بل يصرعهم، وليس كذلك شرعا، بل هو من يملك نفسه عند الغضب، فهذا هو الفاضل الممدوح الذي قلّ من يقدر على التخلق بخلقه ومشاركته في فضيلته بخلاف الأول[1].

وبهذا الأسلوب الحواري شوقهم النبي الكريم وأثار انتباههم، بأن سألهم عن بعض المصطلحات المعروفة عندهم، فيجيبوه بما هو مشهور بينهم من معانيها، وعند ذلك يبادر إلى تفسيرها لهم بإعطائها المدلول الشرعي الحقيقي الذي ينبغي أن يكون، تنبيها لهم على المعاني الحقيقية للأشياء بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهي معاني قد لايلتفت إليها البعض، ولكنها عند النبي ﷺ أحق أن تُفهم بما يذكره للناس، وهو خير من يستنبط وخير من يعرف ما ينفع الناس ويصلحهم.

- وأخرج البخاري في صحيحه، عن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قعد على بعيره وأمسك إنسان بخِطامه أو بزمامه، قال: أيُّ يوم هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى.قال: فأيُّ شهر هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه.فقال: أليس بذي الحجة؟قلنا: بلى.

قال: فإنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ليبلغ الشاهد الغائب..)[2].

١- شرح صحيح مسلم للنووي، ج ١٥/ ١٦٣.

٢- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ رب مبلغ أوعى من سامع، ج١/ ٢٤.

ووقع ﮬ رواية أخرى للبخاري: أنهم أجابوه عن كل سؤال بقولهم: «اللّه ورسوله أعلم»

قال القرطبي مبينا أثر هذا الحوار ﮬ إيصال المعلومة المهمة ولفت انتباه الحاضرين:

«سؤالهﷺ عن الثلاثة وسكوته بعد كل سؤال منها كان لاستحضار فهومهم وليقبلوا عليه بكليتهم وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه، ولذلك قال بعد هذا: «فإن دماءكم.. إلى آخره ، مبالغة ﮬ بيان تحريم هذه الأشياء.»

قال الحافظ بن حجر: ومناط التشبيه ﮬ قوله» كحرمة يومكم هذا» وما بعدهظهوره عند السامعين، لأن تحريم البلد والشهر واليوم كان ثابتا ﮬ نفوسهم مقررا عندهم بخلاف الأنفس والأموال والأعراض، فكانوا ﮬ الجاهلية يستبيحونها فطرأ الشرع عليهم بأن تحريم دم المسلم وماله وعرضه أعظم من تحريم البلد والشهر واليوم، فلا يرِد كون المشبه به أخفض رتبة من المشبه، لأن الخطاب إنما وقع بالنسبة لما اعتاده المخاطبون قبل تقرير الشرع.

وتعقيبا على قولهم عند كل سؤال: «اللّه ورسوله أعلم» قال الحافظ: وذلك من حسن أدبهم لأنهم علموا أنه لا يخفى عليه ما يعرفونه من الجواب، وأنه ليس مراده مطلق الإخبار بما يعرفونه، ولهذا قال ﮬ رواية الباب: «حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه»[1].

ومن فائدة هذا الأسلوب الحواري –السؤال والجواب- إسهام المتعلم مع العالم ﮬ التفكير وإبداء الرأي، وأنه يُهيىء العقل ويُعده للتفكير، ويفتح أمام المتلقي أسباب الفهم العميق وحب المشاركة والتعاون.

١- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج١/ ١٣٠.

ومن الأساليب التعليمية الواردة في السنة النبوية

٢- طرح المسألة ليختبر العالم ما عند المتعلم من العلم بأسلوب حواري:

فمن ذلك:

- ما أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم حدثوني ما هي؟ قال: فوقع في نفسي أنها النخلة ، ثم قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله. قال: هي النخلة).

وفي رواية أخرى زاد الراوي: فوقع الناس في شجر البوادي، قال ابن عمر: «فوقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت»وفي رواية: «فأردت أن أقول هي النخلة فإذا أنا أصغر القوم فسكت»وفي رواية: «ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم»[١].

قال الحافظ ابن حجر تعقيبا على هذا الحديث وإيضاحا لفوائده: فيه امتحان العالم أذهان الطلبة بما يخفى مع بيانه لهم إن لم يفهموه، وأما ما رواه أبو داود من حديث معاوية عن النبي ﷺ «أنه نهى عن الأغلوطات» قال الأوزاعي أحد رواته: «هي صعاب المسائل»، فإن ذلك محمول على ما لا نفع فيه، أو ما خرج على سبيل تعنيت المسؤول أو تعجيزه، وفيه التحريض على الفهم في العلم، وفيه استحباب الحياء ما لم يؤدِّ إلى تفويت مصلحة.. وفيه ضرب الأمثال والأشباه لزيادة الإفهام وتصوير المعاني لترسخ في الذهن ولتحديد الفكر في النظر في حُكم الحادثة، ... وفيه أن العالم الكبير قد يخفى عليه بعض ما يدركه من هو دونه لأن العلم مواهب والله يؤتي فضله من يشاء[٢].

١- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه.، وباب الفهم في العلم، ج١/٢١، ٢٣، ٢٦.

٢- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، المطبعة البهية، مصر، ج١/١١٩-١٢٠.

ومما جاء في التطبيق العملي عند علماء الأمة لمنهج الحوار التعليمي من خلال الأسئلة:

أن الإمام أبا يوسف القاضي-رحمه الله- المتوفى سنة ١١٨٢هـ، لم يخلِ اللحظات الأخيرة من عمره من المحاورة العلمية من خلال بسط الأسئلة الحوارية رجاء منفعة الطلبة، قال تلميذه القاضي إبراهيم بن الجراح: مرض أبو يوسف، فأتيته أعوده فوجدته مغمى عليه، فلما أفاق قال لي: يا إبراهيم ما تقول في مسألة؟ قلت: في مثل هذه الحالة؟! قال: ولا بأس بذلك، ندرس لعله ينجو به ناج. ثم قال: يا إبراهيم، أيُّهما أفضل في رمي الجمار، أن يرميها ماشيا أو راكبا؟ قال: راكبا. قال: أخطأت. قلت ماشيا. قال: أخطأت. قلت: قل فيها يرضى الله عنك.

قال: أما ما كان يوقف عنده للدعاء، فالأفضل أن يرميه ماشيا، وأما ما كان لا يوقف عنده فالأفضل أن يرميه راكبا.

ثم قمت من عنده، فما بلغت باب داره حتى سمعت الصراخ عليه، وإذا هو قد مات رحمه الله[١].

٣- ومن الأساليب التعليمية الحوارية:

إثارة الحوار التعليمي عن طريق التحذير من خطأ شائع:

مثال ذلك: ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إياكم والجلوس بالطرقات)، فقالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بدٌّ، نتحدث فيها. فقال: إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وماحق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٢].

١- عبد الفتاح أبو غدة، قيمة الزمن عند العلماء، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط١، ص: ١٥، نقله من كتاب مناقب أبي حنيفة للموفق المكي ج١/٤٨١.

٢- صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب قول الله تعالى(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم..)ج٧/١٢٦.

فنلحظ أن النبي ﷺ قد أثار فيهم حب الحوار من خلال مبادرتهم بقوله: إياكم.. وهي صيغة تحذيرية، فجعلهم يناقشون مسألة الجلوس في الطرقات، حيث يُفهم من جوابهم أنهم وإن جلسوا في الطرقات إنما جلسوا لمصلحة لكن لا مانع عندهم من الالتزام بأدب الطريق، وهنا أراد النبي الكريم أن يستثمر هذا التجاوب، فطلب منهم أن يتحلوا بأدب الطريق، فسألوا عن هذا الأدب فأجابهم بتفصيل، فكان ذلك حوارا تعليميا بعيدا عن تقرير الأمر بطريقة التلقين مما يساعد على ترسيخ ما سمعوه والالتزام به وعدم نسيانه.

ومن خلال ما تقدم ، يتبين لنا أنَّ أسلوب الحوار النبوي هو منهج حكيم وطريقة ذكية ينفذ من خلالها الداعية والعالم إلى عقل الطرف الآخر وإلى قلبه فتحصل الفائدة المرجوة ويتحقق الهدف المنشود، ومن هنا يتبين لنا معنىً من معاني الحكمة التي جاءت الدعوة إليها في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل/١٢٥).

الحوار مع غير المسلمين

السلم هو أساس العلاقات الدولية، لأنه البيئة الخصبة المواتية لنشر الثقافة ودعوة الخير والحق، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ (البقرة: ٢٠٨).

والبر والإحسان هو أساس العلاقة بين الناس، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

والتعارف هو سبب جعلهم شعوبا وقبائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: ١٣).

لذا فإن الوسيلة الضرورية لتحقيق كل ذلك إنما هي الحوار القائم على الاحترام المتبادل، والحوار هو مظهر من مظاهر البر والإقساط المذكور في قوله تعالى:

﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة: ٨).

فلا بديل عن الحوار وسيلة للبر والإقساط، وطريقا للتواصل بين الشعوب لتعرف كل أمة ما عند غيرها، وليكون الحوار سببا في التبادل الثقافي والتعاون السياسي والاقتصادي والعلمي وغير ذلك من مناشط الحياة خاصة في هذا الزمن الذي تقدمت فيه وسائل الاتصال بصورة هائلة سهلت اللقاء والتواصل.

وقد قرر الشرع مبدأ الحوار وأمر به القرآن الكريم، فهو واجب شرعي يقوم به أهل العلم، عملا بقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، وقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥)، وغيرها من الآيات في هذا الباب، وكذا قياما بواجب النصيحة التي تدل على الصدق والإخلاص والسعي توجيه الناس نحو الخير ومعرفة الحق..

لهذا، من المفيد معرفة فقه الحوار والتعامل مع غير المسلمين من خلال النصوص وقواعد الشريعة المعتمدة، فنسوق ما جاء من حوار وتعامل للرسول ﷺ مع المشركين في الفترة المكية وهي فترة تقوية العقيدة والإعداد للمؤمنين، لإلقاء الضوء على منهجية تلك الفترة، ثم المحاورات التي كانت بعد ذلك في الفترة المدنية.. فترة نزول الأحكام والتشريعات، وفيها قويت شوكة المسلمين، ثم محاورة الرسول الكريم لأهل الكتاب من يهود يجاورونه

بالمدينة أو نصارى قدموا عليه ليعرفوا ما عنده، مع استنباط ما في تلك المحاورات من فوائد وعبر ودروس نستفيد منها في هذا العصر الذي نحتاج فيه إلى هدي سيد المرسلين وقدوة الدعاة السالكين في التعامل الصحيح مع غير المسلمين ومنهجية محاورتهم.

أولا : حوار الرسول ﷺ مع أهل الأوثان في الفترة المكية:

١- حوار الصدع بالدعوة:

أخرج البخاري عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء /١١٤)، صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقيّ؟

قالوا: نعم. ما جربنا عليك إلا صدقا.

قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟!.. فنزلت(تبت يدا أبي لهب وتب..) [١]

وفي هذا الخبر إشارات في فقه الحوار، منها:

- أن الجهر بالحوار لابد منه لينتفع الجميع، وأن السِّرية فيه تحكمها الظروف.

- وأنه ينبغي اختيار المكان والزمان المناسبين، حيث رأينا أن الرسول الكريم قد اختار مكانا عاليا متوسطا يعرفه كل الناس وهو جبل الصفا .

- وفي الخبر إشارة مهمة إلى أهمية حسن الاستهلال في بدء الحوار وشد

١- صحيح البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الشعراء، ج١٧/٧.

انتباه السامعين، وذلك من خلال قوله لهم: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي..»

– وفيه أيضا ما يُسمى بإلزام الخصم، حيث مهّد لخطابه معهم بجعلهم يُقرّون له بالصدق والأمانة، مما يلزمهم التصديق بما يقول خاصة في قوله على الله تعالى، فما كان ليترك الكذب على الناس ثم يكذب على الله تعالى في فهم كل عاقل.

– وفيه ما ينبغي على المسلم الاتصاف به من الصبر على رد الطرف المخالف ولو أساء الأدب، حيث رأينا أن النبي ﷺ لم يرد على أبي لهب إساءته، إنما تولى الله الرد وذلك ليكون عبرة لمن يعتبر، فالمطلوب التحمل والصبر من أجل الله تعالى لا الغضب لأنفسنا، لعل الطرف الآخر يرعوي أو يشعر بسوء تصرفه فيندم ويكون سببا في تراجعه عن مذهبه السيئ.قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (فصلت: ٣٤).

٢- حوار النبي ﷺ مع عتبة بن ربيعة:

روى ابن اسحق أن عتبة بن ربيعة –وكان سيدا– قال يوما وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنّا؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: يا أبا الوليد قُم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال له: «يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم وسفّهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنتَ تريد به شرفا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه...حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه.

قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟قال: نعم

قال: فاسمع مني؟قال: أفعل

فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿حمٓ ١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ فصلت ١-٤ ثم مضى رسول الله-ﷺ- فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه.. فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبا الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولا ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة...»(١).

وفي هذا الخبر إشارات مفيدة في فقه الحوار وآدابه، منها:

- الإنصات الكامل حتى يفرغ الطرف الآخر دون مقاطعة، بل إتاحة المجال له إن أمكن لإضافة ما يريده إن كان غفل عن شيء أو نسيه (أقد فرغت يا أبا الوليد)، وهذا غاية في الإنصاف ونهاية في الذوق الرفيع، يحتم على العاقل احترامه وتقديره ومعاملته بالمثل. حيث استمع لوجهة نظر الخصم بصدر رحب، مع أنها وجهة نظر مرفوضة وذلك لضمان استماع الطرف الآخر لوجهة نظره.

١- ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، دار الخير، بيروت، ط١، ج١/٢٣٥.

وحسن الاستماع صفة ملازمة لطالب العلم سواء كان في حوار أم في مجلس علم، وهذا ما كان يميز أصحاب النبي ﷺ ، فعن أسامة بن شريك قال: (أتيت النبي ﷺ وأصحابُه كأنما على رؤوسهم الطير...)[1].

يعني من شدة الاصغاء وحسن الاستماع.

- عدم الاشمئزاز من كلام الطرف الآخر، ويظهر ذلك جليا حيث إن الرسول ﷺ لم يعنفه ولم يسخر منه.

- إعطاء الطرف الآخر حقه من الاحترام اللائق به في المخاطبة، والكلام معه بأدب وتقدير، ويظهر ذلك من مخاطبة الرسول لعتبة بكنيته: «أفرغت يا أبا الوليد»؟

- أهمية الاستعانة بالقرآن الكريم وما فيه من بلاغة ومعاني وعبر مواعظ، خاصة إذا كان الطرف الآخر ممن يفهم ذلك ويُحسن تدبره، وقد اختار النبي الكريم آيات من أول سورة فصلت تناولت موقف المشركين من الإسلام وتعرضت لعقيدة التوحيد وقدرة الله تعالى الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.

وقد كان لهذه الآيات وقع شديد على نفس عتبة بن الوليد حيث أثرت فيه تأثيرا شديدا، حتى جاء قومه وقال: «سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم..»

وقد أسلم كثير من رجالات العرب بتأثير بلاغة القرآن وما فيه من معاني توافق الفطرة وتؤثر في النفس البشرية، فكلام الله تعالى خير الكلام وأصدق الحديث.

١- أبو داود في سننه، كتاب الطب، رقم ٣٨٥٥، والترمذي، كتاب الطب، رقم ٢٠٣٨، وقال حسن صحيح.

٣- **سياسة المفاوضات:**

قال ابن إسحق: ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة– كما حدثني بعض أهل العلم، عن سعيد بن جبير، وعن عكرمة مولى ابن عباس، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، أخو بني عبد الدار، وأبو البَختري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود... قال: اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشارف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتِهم، فجاءهم رسول الله ﷺ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعزّ عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمد إنا بعثنا إليك لنكلمك وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة، وسفّهت الأحلام وفرّقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح قد جِئته فيما بيننا وبينك- أو كما قالوا له – فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئيا تراه قد غلب عليك – وكانوا يُسمون التابع من الجن رِئيا – فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نُبرئك منه، أو نَعذر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل عليّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، - أو كما قال رسول الله .

قالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقل ماءً ولا أشد عيشا منا، فسلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسيّر عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، ليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن لنا منهم قُصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألنا صدقناك وعرفنا به منزلتك من اللّه، وأنه بعثك رسولا كما تقول.

فقال لهم – صلوات اللّه وسلامه عليه–: ما بهذا بُعثت إليكم، إنما جئتكم من اللّه بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر اللّه تعالى حتى يحكم اللّه بيني وبينكم.

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخُذ لنفسك، سلْ ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جِنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يُغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم.

فقال لهم رسول اللّه ﷺ: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن اللّه بعثني بشيرا ونذيرا، أو كما قال، فإن تقبلوا ما جئت به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر اللّه بيني وبينكم.

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال رسول اللّه ﷺ: ذلك إلى اللّه، إن يفعله بكم فعل.

قالوا: يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تُراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذ لم نقبل منك ما جئتنا به، إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نُهلكك أو تُهلكنا.

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم[1].

فقه الحوار:

في هذا الحوار الطويل الذي بادرت به قريش فوائد عديدة ودروس وعبر، لا تخفى على كل ذي بصيرة، تؤكد على أهمية موقف الداعية عندما يتعرض لحوار يتعلق بالمبادئ والثوابت:

- فمن ذلك: أن قريشا – وهي تمثل الطرف الآخر- هي التي طلبت إجراء الحوار المذكور، وأن الرسول الكريم بادر فلبّى ذلك، وهذا يدلنا على أن الواجب يحتم على الدعاة وأهل العلم اقتناص كل فرصة فيها حوار لعلها تكون مفتاحا لهداية الآخرين، ولأن ذلك فرصة ثمينة لعرض ما عندنا من الحق والخير واستماع وجهة نظر الآخر لمعرفة طريقة تفكيرهم وما هي بواعثهم وأهدافهم.

- ومن ذلك: أن الرسول ﷺ قد استمع لمطالبهم حتى انتهوا من ذلك دون أن يقاطعهم، وهذا يذكر بأدب من آداب الحوار وهو حسن الإصغاء للآخر حتى ينتهي، لأن المقاطعة توغر الصدر وتشتت الفكر وتُعكّر التواصل.

- **ومن ذلك:** أن الرسول ﷺ لم يتعرض لهم في هذا الحوار بتسخيف أو تعنيف أو شتم، مع أنهم تفننوا في تقبيح ما جاء به والتشنيع عليه في ذلك، حتى أنهم لم يستبعدوا كونه مريضا أو أنه يتلقى تعليمه من شخص آخر، ونحو ذلك مما يسيء إليه، وذلك أن الحرص على هداية الناس وإقناعهم

١- ابن هشام، السيرةالنبوية، مرجع سابق، ج١/ ٢٣٦-٢٣٧.

بالحق يحتاج جواً من المودة والتسامح وإبداء التغاضي دون تشنج.

- ومن ذلك: الصراحة في الإجابة وعدم المداهنة، حيث وجدنا الرسول الكريم ﷺ قد بادر إلى إيضاح موقفه عندما قال لهم: «ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم ولكن اللّه بعثني إليكم رسولا..».

وهذا الجواب الصريح ضروري ليقطع عليهم وساوسهم وأمنياتهم بتخذيله ومحاولة ثنيه عن هدفه، فالجواب الحازم في ما يتعلق بالمبادئ والثوابت أمر في غاية الأهمية كما نراه في سيرة المصطفى ﷺ، وذلك لإدراك الرسول ﷺ أن الطرف الآخر عندما يشتد عليه الضغط ويخشّى من عواقب ظهور أصحاب الحق يلجأ إلى العروض المغرية من منصب أو جاه أو مال، وذلك لأن عقلية أهل الجاهلية قديما وحديثا لا تعرف غير هذه القيم، لأنها في الأصل لا تسعى إلا إلى ذلك، ويحسبون أن الدعاة إلى اللّه يريدون هذه المكاسب ويسعون إليها، وفي جواب الرسول ﷺ لكفار قريش درس وعبرة يحتذيه الدعاة إلى اللّه بعزم وثبات: «ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم..».

أما في أمور أخرى تحتاج إلى مرونة في الحوار والأخذ والرد مما تقتضيه مصلحة الإسلام والمسلمين فلا مانع من مسايرة الطرف الآخر ومداراته إذا كان في ذلك تأليفا لقلبه وتمهيدا لإقناعه.

- ومن ذلك: أهمية إظهار الصبر قولا وعملا، لأن الصبر دليل على الإيمان العميق بالفكرة، وبرهان على الصدق في المضي بها إلى آخر المطاف مهما كانت النتائج، ولهذا كان في جوابه ﷺ لهم: « فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر اللّه تعالى حتى يحكم اللّه بيني وبينكم..»، وإظهار الصبر أحد عوامل اقتناع الطرف الآخر بصدق المحاور وأنه صاحب هدف نبيل يضحي من أجله.

- ومن ذلك: عدم انسياق المحاور وراء رغبات وتعجيزات الطرف الآخر، لأن الدعوات إنما ترتكز على العقيدة التي قامت البراهين على صدقها، ثم إن طلبات التعجيز لا تنتهي لأن الهدف منها إضاعة الوقت أو جر الداعية إلى سلسلة من التعجيزات، وفي حالة تعرض الداعية إلى شيء من هذه الطلبات التعجيزية، فعليه أن يقتدي بمنهج خير الورى ﷺ ويكتفي بالقول: «ما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا...».

فالدعاة ليس من واجبهم تلبية رغبات المجتمع، إنما واجبهم بيان الهدف من الرسالة وما يتبع الالتزام بها من خير في الدارين: « فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة».

وقد تكفل القرآن الكريم بالرد على كل مطالبهم وبيان أن حكمة الله تعالى اقتضت عدم الاستجابة لها لأنها تعجيزية، وبيان أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون الرسول بشرا مثلهم ليتمكنوا من الأخذ عنه وليكون قدوة لهم وليبتلي العباد بعضهم ببعض، وأن في القرآن من الإعجاز والحكمة ما فيه الكفاية لمن أراد الحق ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ العنكبوت: ٥١.

٤- حوار الرسول ﷺ مع المشركين في بيت أبي طالب:

روى ابن إسحق عن ابن عباس أن أشراف قريش مشوا إلى أبي طالب عندما علموا بأنه على فراش الموت، فقالوا له»يا أبا طالب، إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكف عنا، ونكف عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه .

فبعث إليه أبو طالب فجاءه، فقال: يا ابن أخي: هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك، ليعطوك وليأخذوا منك.قال: فقال رسول الله ﷺ: نعم، كلمة واحدة تُعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم.

قال فقال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات .قال: تقولون لا إله إلا اللّه، وتخلعون ما تعبدون من دونه. قال: فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا، إن أمرك لعجب!

قال: ثم قال بعضهم لبعض: إنه واللّه ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا عل دين آبائكم حتى يحكم اللّه بينكم وبينه، قال: ثم تفرقوا.

فقال أبو طالب لرسول اللّه ﷺ: واللّه يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططا[١].

٥- حوار الرسول ﷺ مع الخزرج قبل بيعة العقبة

قال ابن إسحق: لما لقيهم رسول اللّه ﷺ قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج.

قال: أمن موالي اليهود؟قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى.

فجلسوا معه، فدعاهم إلى اللّه عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، قال: وكان مما صنع اللّه بهم في الإسلام، أن يهودا كانوا معهم في بلادهم... فلما كلم رسول اللّه ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى اللّه، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون واللّه إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام[٢].

هذا الحوار فيه دلالة مهمة ينبغي للدعاة وأهل العلم أن يلتفتوا إليها وهي الاستفادة من المناخ النفسي والظروف المحيطة بالطرف الآخر، وكذا استثما الأرضية الثقافية لمن نحاورهم، فهنا كان الطرف الآخر وهم الخزرج من

١- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٤٥.

٢- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٥٣ .

أهل المدينة يجاورهم اليهود وهم أهل كتاب، فلم يكن غريبا على أذهانهم الحديث عن الله تعالى وكتبه ورسله فيما يسمعونه دائما من اليهود، وكانوا مهيئين نفسيا لسماع حديث الإسلام، فقد كانوا يحسون دائما بالحسرة أمام اليهود، فهم أميون ليس عندهم رصيد يواجهون به اليهود الذين يشعرون بتفوقهم العلمي وأفضليتهم على غيرهم لأنهم أهل كتاب، ثم إن الحديث عن النبي المرسل كان يملأ جو يثرب، بل يهددهم اليهود به، فما أن تناهى إلى سمع الخزرج حديث الرسول ﷺ حتى قالوا: «والله إنه للنبي الذي توعدكم يهود فلا يسبقنكم إليه»[1].

ثانيا: حوار الرسول ﷺ مع المشركين في المرحلة المدنية:

١- حواره مع عمير بن وهب الجُمحي:

قدم عمير بن وهب المدينة يقصد قتل النبي ﷺ وقد كان ابنه وهب بن عمير أسيرا بأيدي المسلمين على إثر غزوة بدر، وساق ابن إسحق خبره إلى أن قال:

... ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله هذا عدو الله عُمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه. قال: فأدخله عليّ ؛ قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحِمالة سيفه في عنقه فلبّبه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ.

فلما رآه رسول الله وعمرُ آخذٌ بحِمالة سيفه في عنقه قال: أرسله يا عمر، أدنُ يا عُمير؛ فدنا ثم قال: «أنعِموا صباحا»، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم.

فقال رسول الله ﷺ قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عُمير، بالسلام تحية أهل الجنة .فقال: أما والله يا محمد إن كنتُ بها لحديث

١- منير الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، مكتبة المنار، الزرقاء، ط٣، ص: ١٥٠.

عهد.قال: فما جاء بك يا عُمير؟قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه .قال: فما بال السيف في عنقك؟

قال: قبّحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئا!قال: اصدقني ما الذي جئت له؟قال: ما جئت إلا لذلك. قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحِجر فذكرتما أصحاب القَليب من قريش، ثم قلتَ: لولا دَيْن عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدا، فتحمّل صفوان بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك .

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنّا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: فقّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره، ففعلوا.

قال ابن إسحق: فلما قدم عُمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويُؤذي من خالفه أذى شديدا، فأسلم علي يديه ناس كثير[1].

انظر كيف انقلب ذلك المشرك خلال لحظات إلى مؤمن يدعو إلى الإسلام بعد أن تأثر بما سمعه في حواره مع الرسول ﷺ وأن أيقن أن من جاء لقتله لا يريد به إلا الخير، وبعد أن علم أنه نبي، وهذا يدل على أن كثيرا من أهل الضلال إنما ينقصهم أن تقوم الحجة عليهم، وأنهم على استعداد للإيمان لكن بعد أن يسمعوا ويروا ما هو جدير بأن يأخذ بأيديهم نحو الحق.

إن مقابلة الآخر، ولو كان مضمرا للشر، باللطف ثم الحوار العقلاني ينتج عنه أثر عميق، وهو ما نتعلمه من سيرة سيدنا محمد ﷺ .

١- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٢٣٠.

٢- حوار صلح الحُديبية: (حوار النبي ﷺ مع مشركي قريش)

جاء في خبر عروة بن مسعود بشأن صلح الحديبية: « ثم أرسلوا عروة بن مسعود فجاءه فقال يا محمد ما هذا الحديث، تدعو إلى ذات الله ثم جئت قومك بأوباش الناس من تعرف ومن لا تعرف لتقطع أرحامهم وتستحل حُرمتهم ودماءهم وأموالهم.

فقال: إني لم آت قومي إلا لأصل أرحامهم ليبدِّلهم الله بدين خير من دينهم ومعايش خير من معايشهم.فرجع حامدا يُحسن الثناء[١] .

- وأخرج أحمد في مسنده والبيهقي في السنن الكبرى، وابن هشام في السيرة من طريق ابن إسحق حدثني الزهري: أن قريشا أرسلت سُهيل بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي، فقالوا: ائت محمدا فصالحه ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبدا، فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه النبي ﷺ قال: «لقد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فلما انتهى إلى النبي ﷺ تكلما وأطالا الكلام وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح..) الحديث[٢].

- وأخرج البخاري في صحيحه، عن المِسْوَر بنِ مَخْرَمة ومروان - يصدِّق كل واحد منهما حديث صاحبه- قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى كانوا ببعض الطريق... وسار النبي ﷺ حتى إذا كانوا بالثنية التي يُهبَط عليهم منها، بركت به راحلته، فقال الناس حَل حَلْ، فألحَّت، فقالوا: خلأت القصواء خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: ما خلأت القصواء وما ذلك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال: والذي نفسي بيده لا يسألوني خُطة يُعظمون فيها حُرُمات الله إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها

١- تاريخ ابن أبي شيبة، لوحة ٦٠، (نقلا عن الشيخ حافظ الحكمي، مرويات غزوة الحيبية، مرجع سابق، ص١٢١٣).

٢- مسند أحمد ج٤/٣٢٣، سنن البيهقي الكبرى، ج٥/٢٣٥، سيرة ابن هشام، ج٣/٢٤٥.

فوثبت، قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحُديبية على ثمد قليل الماء...

فساقا الحديث إلى قوله: فجاء سُهيل بن عمرو فقال: هاتِ اكتب بيننا وبينكم كتابا فدعا النبي ﷺ الكاتب فقال النبي ﷺ اكتب بسم الله الرحمن الرحيم

قال سُهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب.

فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهم. ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله.

فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله.

فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذّبتموني، اكتب محمد بن عبد الله» .

قال الزهري: وذلك لقوله لا يسألوني خطة يُعظمون فيها حُرمات الله إلا أعطيتهم إياها.

فقال النبي ﷺ: على أن تُخَلُّوا بيننا وبين البيت فنطوف به.

فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب.

فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا.

قال المسلمون: سبحان الله كيف يُرد إلى المشركين وقد جاء مسلما، فبينا هم كذلك إذ دخل أبو جندل ابن سهيل بن عمرو يَرسِف في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين...[1].

١-صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحروب..١٧٨/٣.

قال ابن إسحق: قال الزهري في حديثه: وكان في شرطهما حين كتبوا الكتاب أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن مع عقد رسول الله وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم[1].

قال الزهري في حديثه: ثم انصرف رسول الله ﷺ من وجهه ذلك قافلا، حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (الفتح: ١ – ٢).

فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم من فتح الحديبية، إنما كان القتال حيث التقى الناس، ولما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس وكلم بعضهم بعضا والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا في تلك المدة إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر)[2].

قال الحافظ ابن حجر: «ومما ظهر من مصلحة الصلح المذكور غير ما ذكره الزهري أنه كان مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي دخل الناس عقبه في دين الله أفواجا، كانت الهدنة مفتاحا لذلك، ولما كانت قصة الحديبية مقدمة لذلك سميت فتحا... وكان في الصورة الظاهرة ضيما للمسلمين وفي الصورة الباطنة عِزًّا لهم فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعض من غير نكير وأسمع المسلمون المشركين القرآن وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم

١- مسند أحمد ج٤/٣٢٥، سيرة ابن هشام، ج٣/٢٤٨.

٢- سيرة ابن هشام، ج٣/٢٤٩.

بذلك إلا خفية، وظهر من كان يُخفي إسلامه، فذلّ المشركون من حيث أرادوا العزة.»[1].

نعم إنه الفتح المبين، إذ لا فتح أعظم من فتح القلوب لتمهيد الأمر لدخول الناس في دين اللّه تعالى، وقد رأينا كيف جنح النبي الكريم للمسالمة والموادعة من أجل حقن الدماء، وهو يعلم أن أمر اللّه ماض وأن النصر قريب، وأنه مهما أمكن أن يكون الحوار بديلا للسلاح فهو الأمر الحكيم والتصرف القويم، وهو في ذلك يتمشى مع مقصد الشريعة الأعظم وهو هداية الناس والرحمة بهم وحقن دمائهم.

وقد رأينا كيف تنازل النبي الكريم عن بعض الأمور التي رآها بعض المسلمين مُجحفة، لكن نظر النبي كان بعيدا يستشرف المستقبل ويأمل في نصر اللّه وخضوع قريش في نهاية الأمر لدين اللّه، فوعد اللّه بالتمكين لا بد منه لكن العجلة غير مطلوبة، قال اللّه تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (آل عمران: ١٧٩).

٣-حوار الرسول مع أبي سفيان قبل إسلامه

روى ابن إسحق قصة فتح مكة، ومما جاء فيها قال – يعني العباس: قلت: ويحك يا أبا سفيان! هذا رسول اللّه ﷺ في الناس، واصباح قريش واللّه!

قال: فما الحيلة؟

قال: قلت: واللّه لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجزها، :آتي بك رسول اللّه ﷺ فأستأمنه لك، قال: فركب خلفي ورجع صاحباه، قال: فجئت به، كلما مررت بنيران من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا ناقة

١- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، شرح صحيح البخاري، مرجع سابق، ج٥/٢٦٦.

رسول اللهﷺ وأنا عليها، قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررتُ بنارِ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال من هذا؟ وقام إليّ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ...

فقال رسول الله ﷺ: اذهب به يا عباس إلى رَحلك، فإذا أصبحت فأتني به، قال: فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلهٌ غيره لقد أغنى عني شيئا بعد.

قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئا

فقال له العباس: ويحك! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله قبل أن تُضرب عنقك، قال: فشهد شهادة الحق، فأسلم.

قال العباس: قلت يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئا .

قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن[1] .

ففي هذا الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ وبين أبي سفيان زعيم مكة قبل إسلامه دلالات بالغة الأهمية في محاورة الوجهاء ممن لهم أثر

١- ابن هشام، السير النبوية ج٣/٣٦، وأصل الرواية في البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح٥/٩٥، مختصرة .

في جاهليتهم، ويرجى لهم مكان مهم إذا أسلموا، فهذا أبو سفيان قائد المشركين ولم تخرج غزوة من مكة لحرب الإسلام إلا كان هو القائد والموجه والمهيّج، فما أن أسلم حتى كان المسارع لتحذير قومه من قتال المسلمين، وقد كان هو في طليعة من آمن وبايع من أهل مكة يومئذ.

فقد لاحظنا أولا أن النبي ﷺ لم يأمر بقتله أو اعتقاله أو نحو ذلك مما كان من الممكن أن يتصرف فيه قائد آخر غير النبي ﷺ تحفزه الأحقاد والضغائن القديمة، إنما الذي يحفز هذا النبي الكريم هداية الناس ودخولهم في دين الله مغلبا جانب الصفح والعفو عمن عاداه وحاربه في كل المواطن، فالانتقام ليس من شيمة الدعاة لأنهم أكبر من ذلك.

وقد وقع تصرف الرسول ﷺ في نفس أبي سفيان موقعا بالغا فكسب قلبه ومودته وجعله يرجع إلى مكة داعيا إلى الإسلام وداعيا إلى السلم والموادعة، ولا شك أن لدعوة مثل أبي سفيان للسلم والموادعة أثرها الكبير في نفوس أهل مكة لما يعلمونه من منزلته، ومن دواعي تحفيز مثل أبي سفيان واستمراره على الإيمان هو تأليف قلبه بمختلف الوسائل حتى يترسخ الإيمان في قلبه، وقد سهى بعض الأنصار حينما رأوا العناية البالغة بأبي سفيان وقوله: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، فقد ظن بعضهم أن الرسول ﷺ قد مالت عاطفته تجاه عشيرته وبلدته، فقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة أن الأنصار عندما سمعوا هذه الكلمة قال بعضهم لبعض: «أما الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته ورغبة في قريته، .. فقال لهم النبي ﷺ: «قلتم أما الرجل فأخذته رأفة بعشيرته، ورغبة في قريته، ألا فما اسمي إذاً؟ (ثلاث مرت)، أنا محمد عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم! قالوا: والله ما قلنا إلا ضنا بالله ورسوله، قال: «فإن الله ورسوله يصدقانكم ويُعذرانكم»[1].

١– صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب فتح مكة، ج٣/١٤٠٧ حديث رقم: ٨٦.

٤- حوار الرسول ﷺ مع وفد ثقيف

قدم وفد ثقيف بعد مقدم النبي ﷺ من تبوك في رمضان من سنة تسع، وكان من خبرهم: أنهم أبطأوا عن الإسلام، ثم أجمعوا أمرهم أن يُرسلوا وفدا إلى النبي ﷺ، وأنـزل رسول الله وفد ثقيف في المسجد وبنى لهم خياما لكي يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا، ومكث الوفد أياما عديدة يختلفون إلى رسول الله ﷺ ويختلف إليهم، وهو يدعوهم إلى الإسلام.

روى ابن سعد أنه ﷺ كان يأتيهم كل ليلة بعد العشاء فيقف عليهم يحدثهم حتى يراوح بين قدميه[١].

وقد سألوا رسول الله أن يدع لهم الطاغية وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم، حتى سألوا شهرا واحدا بعد مقدمهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى، وإنما يريدون بذلك فيما يُظهرون أن يتسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يُروّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلوا في الإسلام.

فأبى رسول الله عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها، وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يُعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم.

فقال رسول الله ﷺ: أما كسر أوثانكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه، فقالوا: يا محمد سنؤتيكها..[٢].

وجاء في خبر إسلامهم أيضا: أن كنانة – وكان من وجهائهم – قال لرسول الله ﷺ: أفرأيت الزنا، فإنا قوم نغترب ولا بدّ لنا منه .

١- طبقات ابن سعد، ج٢/ ٣٢٤ .

٢- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ١٤١-١٤٣.

قال: هو عليكم حرام، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الإسراء: ٣٢).

قالوا: أفرأيت الربا، فإنه أموالنا كلها ؟

قال: لكم رؤوس أموالكم ، إن الله تعالى يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٢٧٨)؛

قالوا: أفرأيت الخمر، فإنه عصير أرضنا، لا بدّ لنا منها؟

قال: إن الله حرّمها، وقرأ آية تحريم الخمر[١].

قال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: فدخلت ثقيف في الإسلام، فلا أعلم قوما من العرب بني أب ولا قبيلة، كانوا أصح إسلاما، ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم[٢].

دلالات هذا الحوار

في قصة إسلام ثقيف وما حصل من حوار النبي ﷺ لهم، وعدم التفكير بالتعرض لهم بإساءة أو انتقام، فوائد وعبر جمة، فكلنا يتذكر ما حصل للنبي الكريم عندما هاجر إلى الطائف وما تعرض له من الأذى البالغ، حتى قيل له: ادع على ثقيف. فقال: «اللهم اهد ثقيفا وأتِ بهم مؤمنين» .

وها هي ثقيف تأتي مُذعنة راغبة في الإسلام، تحاور بلسانها بعد أن حاورت بسنانها سنين عديدة، ويُستفاد من خبر إسلام ثقيف وغيره جواز عقد المحاورات والمناظرات العلمية في المساجد بين المسلمين وغيرهم، إذا رُجي إسلامهم، فقد حاور النبي وفد ثقيف في المسجد وكذا حاور وفد نصارى نجران، وكان المشرك يدخل عليه المسجد ويسأله ويحاوره، مثلما

١- ابن القيم، زاد المعاد، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ج ٣ /٢٦ .

٢- ابن سعد، الطبقات، ج٢/٧٨.

حصل مع ضمام وافد سعد بن بكر وغيره.

ونستفيد من خبر وفد ثقيف أهمية حسن المعاملة والإكرام، وما لذلك من تأثير في نفوس المخاطبين، كما نستتحلص أن المحاور والداعية إلى الإسلام مهما استعمل المداراة واللين، فإنه ينبغي أن لا يكون ذلك على حساب أصول الإسلام وثوابته، من إيمان أو فرائض أو محرمات بينة، فقد لاحظنا أن ثقيفا طلبوا ترك الصلاة أو ارتكاب الزنى أو شرب الخمر ونحو ذلك، لكن النبي ﷺ كان حازما في هذا الجانب دون تعنيف أو سخرية ونحو ذلك مما يمكن أن يصدر من المحاور عندما يسمع من الطرف الآخر كلاما يتعارض مع قواعد الشريعة، فالذي ينبغي هو الإسراع إلى بيان الحكم صريحا مع تغليفه بالرفق واللطف.

٥- حوار الرسول ﷺ مع عدي بن حاتم

قال ابن إسحق: وأما عدي بن حاتم فكان يقول فيما بلغني: ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به مني، أما أنا فكنت امرأً شريفا، وكنت نصرانيا، وكنت أسير في قومي بالمرباع... فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته، فقلت لغلام كان لي عربي، وكان راعي إبلي، ... ثم ساق ابن إسحق قصة هروب حاتم إلى الشام، ثم قصة المنّ على أخته، وكيف أنها أشارت عليه أن يلحق بالنبي ﷺ ليبايعه على الإسلام.

قال: فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه، وهو في مسجده فسلمت عليه، فقال: من الرجل؟ فقلت عدي بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته، فوقف لها طويلا تُكلمه في حاجتها، قال: فقلت في نفسي والله ما هذا بملك.

قال: ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته، تناول وسادة من أدَم محشوة لِيفًا، فقذفها إليّ، قال: اجلس على هذه، قلت: بل أنت فاجلس

عليها، فقال: بل أنت، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك.

ثم قال: إيهِ يا عدي بن حاتم، ألم تك رَكوسيّا؟قال: قلت: بلى

قال: أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟قال: قلت: بلى.

قال: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك.

قال: قلت: أجل والله، وعرفت أنه نبي مرسل، يعلم ما يُجهل.

ثم قال: لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت، لاتخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيْمُ الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم.

قال: فأسلمتُ[1].

قلت: الحوار السابق يدل على أهمية التواضع وخفض الجناح بالنسبة للعالم، وأن ذلك يجعله في نظر الناس جليلا مهيبا، حيث إن الناس بفطرتهم يكرهون الكبر والمتكبرين، لهذا فمن يتصدى لدعوة الناس وتوعيتهم من خلال الحوار وغيره عليه أن يظهر بمظهر التواضع والرفق، فقد لاحظنا كيف استوقفت الرسول الكريم امرأة ضعيفة فوقف لها بمشهد من عدي بن حاتم وهو ما زال كافرا مما أثّر في نفسه ومهّد لإسلامه، وقد كان هذ التصرف منه عليه السلام سجية وخلقا دائمين، فما كان النبي الكريم يتميز على أحد من المسلمين في مسكن أو ملبس أو طعام.

١- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/١٧١-١٧٣، وانظر الإصابة في تراجم الصحابة لابن حجر العسقلاني، ج٢/٤٦١.

ونرى في هذا الخبر مدى ما كان عليه الرسول الكريم من شظف العيش وقلة الفراش، حتى أنه لميكن في البيت سوى وسادة واحدة من أدَم، آثر بها ضيفه، وهذا التصرف من الرسول الكريم يدل على مدى أهمية الإكرام في كسب قلوب الناس ولو كان بالقليل، فقد فوجئ عدي ببيت النبوة وبمجلس النبي ﷺ مما دفعه إلى حسن الإصغاء وسرعة التأثر.

ويؤخذ من هذا الحوار أهمية أن يظهر المحاور بمظهر المتفائل الموقن بنصر الله تعالى، وأنه لا يستعجل النتائج وإن كانت الظروف والأحوال تخالف ذلك، لأن صاحب العقيدة ينبغي أن يكون واثقا من وعد الله تعالى، غير متسرع لرؤية مكاسب دنيوية، إنما تكون همته هداية الناس وتبليغ دين الله وإقامة الحجة عليهم، أما النصر والتمكين فهو وعد الله تعالى لعباده المؤمنين متى استحقوا ذلك، قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ آل عمران: ١٧٩

ثالثا: حوار الرسول ﷺ مع أهل الكتاب، أهدافه وفقهه:

لم يأل النبي الكريم ﷺ جهدا في حوار أهل الكتاب ودعوتهم وتذكيرهم بالله تعالى، وبيان أنه النبي الموعود الموصوف في التوراة والإنجيل، قياما منه بواجب التبليغ والدعوة إلى الله تعالى.

ويتصف أهل الكتاب عموما بأنهم على قدر من العلم والثقافة، لما لهم من معرفة بالكتاب ومدارسة، وإن كانوا قد حرفوا وبدلوا كما أخبر القرآن الكريم، وقد وصفهم القرآن أيضا بأنهم قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وأن أكثرهم قد فسق وتعاملوا بالرشوة وأخذ الربا، قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء: ١٦٠ – ١٦١).

وقد أنفق الرسول ﷺ جهودا كبيرة لأقناعهم امتثالا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، فآمن به بعضهم ممن ممن تجاوز دوافع العصبية والحسد مثل عبد الله بن سلام وغيره، أما أكثرهم فقد غلبت عليه البغضاء والحسد واتباع المألوف من دين الآباء والأجداد.

وقد شُرع الحوار مع أهل الكتاب لتحقيق مقاصد عديدة:

منها: دعوتهم إلى الله تعالى ببيان الدين الحق وبيان ما هم عليه من تحريف ومخالفة لأصل دينهم.

ومنها: أنّ الحوار يمكن من استمرار التعارف والتعايش بين الناس وتقريب وجهات النظر وتفهم بعضهم بعضا، كما أراد الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ (الحجرات:١٣).

ومنها: أن الحوار يحول دون أن يكون المجتمع الإسلامي في حالة خصومة أو احتكاك أو عداء مع الملل الأخرى التي تتعايش معه أو تجاوره ما دامت لم تعتدِ على المسلمين، وهذا يساعد على استماع الآخرين لما عند المسلمين بتدبر ووعي بعيدا عن العصبية أو الخصومة.

ومنها: أن الحوار يكشف عن أرضية مشتركة بين الأديان وإبراز نقاط الالتقاء مما يساعد على إلقاء الضوء على نقاط الاختلاف الجوهرية وإشباعها بحثا مما قد يوصل من أراد الله هدايته للحق.

ومنها: أن الحوار مع أهل الملل الأخرى على أسس علمية وموضوعية فيه ردٌّ على من يدعو إلى صدام الحضارات، والأصل أن تكون العلاقة بين أهل الملل قائمة على الحوار إلا من بغى وصدَّ عن الحق.

ومنها: أن الحوار يتنافى مع ما يمكن أن يصدر في حالة الجفاء أو الصدام من سخرية أو شتيمة ونحو ذلك مما يوغر الصدور ويغري الآخر بالمعاملة

بالمثل أو أشد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ١٠٨).

ومنها: أن الأفراد عموما بحاجة إلى أن يفهموا جيدا اعتقاد أصحاب الملل الأخرى، لأن كثيرا من سوء الفهم والعصبية ناتج عن الجهل بما عند الآخر.

وللتدليل على مشروعية محاورة أهل الكتاب أسوق ما جاء في السيرة النبوية من محاورات الرسول الكريم وأصحابه لأهل الكتاب ثم بيان ما يُستنبط من ذلك:

أولا: حواره معه اليهود:

من يتدبر السيرة يجد فيها نماذج من هدي النبي ﷺ في التعامل مع اليهود ومحاولة التلطف معهم وتأليفهم للإسلام وانتهاز كل فرصة لتذكيرهم بالله وبما عندهم في كتبهم من صفات النبي ﷺ ووجوب اتباعه، ومن أجل كسب ثقتهم واستمالة قلوبهم كان يعاملهم بالبر والقسط كما أمر الله تعالى.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: أسلم.

فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم. فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»[1].

ودلالة هذا الخبر واضحة في تشريع التعامل معهم والاحتكاك بهم والحرص على دعوتهم، وفي موقف الأب اليهودي وطلبه من ابنه أن يُطيع أبا القاسم ﷺ دليل اعتقادهم في باطنهم صدق هذا النبي، خاصة أن النبي ﷺ لا يريد من هذا الذي هو على فراش الموت شيئا سوى أن يموت على

١- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يُصلى عليه؟، حديث رقم ١٣٥٦.

الدين الحق رحمة منه وشفقة وقياما بواجب الدعوة.

ومما يدل على حرصه على هدايتهم، وأنهم يعتقدون في بواطنهم بصدقه ما أخرجه الترمذي عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان اليهود يتعاطسون عند النبي صلى الله عليه وسلم يرجون أن يقول لهم «يرحمكم الله» فيقول لهم: «يهديكم الله ويصلح بالكم»[1].

وهذه نماذج من المحاورات مع اليهود:

١-قال ابن إسحق: ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود إلى الإسلام، ورغبهم فيه وحذّرهم غِيَر الله وعقوبته، فأبَوا عليه وكفروا بما جاءهم به، فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب: يا معشر يهود اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته.

فقال رافع بن حُريملة ووهب بن يهوذا: ما قلنا لكم هذا قط، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى، ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (المائدة: ١٩)[2].

٢-قال ابن إسحق: وحدثني ابن شهاب الزهري، أنه سمع رجلا من مزينة من أهل العلم يحدث سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة حدثهم: «أن أحبار يهود اجتمعوا في بيت المدراس، حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وقد زنى رجل منهم بعد إحصانه بامرأة من يهود قد أحصنت، فقالوا ابعثوا هذا الرجل وهذه المرأة إلى محمد فسلوه كيف الحكم فيهما... فأتوه فقالوا:

١- جامع الترمذي، كتاب الأدب، باب ما جاء كيف تشميت العاطس، وقال: حسن صحيح، رقم ٢٧٣٩، ج٣/٥٠٩.

٢- ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/١٥٦.

يا محمد، هذا الرجل قد زنى بعد إحصانه بامرأة قد أحصنت، فاحكم فيهما، فقد وليناك الحكم فيهما.

فمشى رسول الله ﷺ حتى أتى أحبارهم في بيت المدراس، فقال: يا معشر يهود، أخرجوا إلي علماءكم، فأخرجوا له عبد الله بن صوريا...، فخلا به رسول الله ﷺ وكان غلاما شابا من أحدثهم سنا، فألظّ به رسول الله ﷺ المسألة، يقول له: يا ابن صوريا، أنشدك الله وأُذكرك بأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلم أن الله حكم فيمن زنى بعد إحصانه بالرجم في التوراة؟

قال: اللهم نعم، أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون أنك لنبي مرسل ولكنهم يحسدونك[١].

قال ابن إسحق: وأتى رسولَ الله ﷺ رافعُ بن حارثة، وسلام بن مشكم، ومالك بن الصيف، ورافع بن حريملة، فقالوا: يا محمد، ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من الله حق؟

قال: بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ الله عليكم من الميثاق فيها، وكتمتم منها ما أُمرتم أن تبينوه للناس، فبرئتُ من إحداثكم.

قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا، فإنا على الهدى والحق، ولا نؤمن بك ولا نتبعك.

فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: ٦٨)[٢].

١- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/١٥٦ .

٢- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/١٥٩ .

٣- قال ابن إسحق: وأتى رسول الله ﷺ محمود بن سيحان، ونعمان بن أضاء، وبحري بن عمرو، وعزير بن أبي عزير، وسلام بن مشكم، فقالوا: أحق يا محمد أن هذا الذي جئت به لحق من عند الله؟فإنا لا نراه متسقا كما تتسق التوراة .

فقال لهم رسول الله ﷺ أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به.

فقالوا عند ذلك: يا محمد أما يعلمك هذا إنس ولا جن؟

فقال لهم رسول الله ﷺ: أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله وإني رسول الله، تجدون ذلك مكتوبا عندكم في التوراة.

فقالوا: يا محمد فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه بما يشاء، ويقدر منه على ما أراد، فأنزل علينا كتابا من السماء نقرؤه ونعرفه، وإلا جئناك بمثل ما تأتي به.

فأنزل الله فيهم: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء:٨٨)[١].

٤- حواره مع يهود بني قينقاع:

وكان من حديث بني قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق بني قينقاع، ثم قال: يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم.

١- ابن هشام، المرجع السابق، ج٢/١٦١.

قالوا: يا محمد، إنك ترى أنا قومك! لا يغرنّك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس[1].

دلالات الحوار مع اليهود:

في ما سلف من أخبار السيرة في حوار الرسول- ﷺ- مع اليهود، نستنبط بعض الدلالات المهمة في الحوار معهم:

١-مشروعية محاورة اليهود من أجل دعوتهم إلى الله تعالى، واتباعا للقرآن الكريم الذي أكثر من حوار أهل الكتاب ومنهم اليهود، حيث رد عليهم في كثير من المواطن لبيان خطأ افتراءاتهم على الله تعالى وعلى رسله وملائكته، وقد امتثل لذلك النبي الكريم فغشيهم في أماكن عبادتهم وذكّرهم بالله وحاورهم.

٢- تذكيرهم بما يعلمونه من أن الرسول مذكور في كتبهم باسمه وصفته، من أجل إلزامهم باتباعه وترك ما هم عليه من الكبر والحسد.

٣-لا مانع من مبادرتهم ودعوتهم ابتداءً دون أن يكون هناك دعوة منهم إلى ذلك، هذا إذا كانوا أهل ذمة يعيشون بين المسلمين ولم يكونوا محاربين.

٤-تذكيرهم بأحكام الله في التوراة، مما يوافق ما عندنا كما حصل من تذكير الرسول لهم بحكم الزاني المحصن.

٥- الاهتمام بمحاورة العلماء منهم وأهل الرأي فيهم، لأنهم هم الذين اطلعوا على التوراة، وفي إيمانهم تأثير على البقية من عامتهم، ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: «أخرجوا إلي علماءكم».

١- ابن هشام، المرجع السابق، ج٣/٤٠.

٦- تذكيرهم بأنهم أحدثوا وبدلوا وكتموا ما أمر الله تعالى ببيانه.

٧- تذكيرهم بإعجاز القرآن وبيانه وما فيه من آيات وقصص عن بني اسرائيل لعلهم يقارنون ويعتبرون ويتعظون حتى لا يحل بهم ما حلّ بأسلافهم.

ثانيا: حواره مع النصارى:

- حوار نصارى نجران:

قال ابن إسحق: وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكبا فهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم، في الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم: العاقب، أمير القوم وذو رأيهم.. والسيّد... وأبو الحارث بن علقمة أحد بني بكر بن وائل، أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم.

قال ابن إسحق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، قال: لما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا على مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات، جُبب وأردية، في جمال رجال بني الحارث بن كعب.

قال: يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ يومئذ: ما رأينا بعدهم وفدا مثلهم، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون، فقال رسول الله ﷺ دعوهم، فصلوا إلى المشرق.

.... فكلّم رسولَ الله منهم أبو حارثة بن علقمة، والعاقب عبد المسيح، والأيهم السيد، وهم من النصرانية على دين الملك، مع اختلاف من أمرهم، يقولون هو الله، ويقولون هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، وكذلك قول النصرانية .

فلما كلمه الحَبْران، قال لهما رسول الله ﷺ: أسلما. قالا: قد أسلمنا.

قال: إنكما لم تُسلما فأسلما. قالا: بلى ؛ قد أسلمنا قبلك. قال: كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير. قالا: فمن أبوه يا محمد؟

فصمت النبي ﷺ عنهما فلم يجبهما، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم كله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين منها...

ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٥٩ - ٦٤).

إلى آخر الآيات من سورة آل عمران في محاجة النصارى والرد عليهم (١-٨٥)

.. قال ابن إسحق: فدعاهم إلى النَصف وقطع عنهم الحجة، فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله تعالى عنه، والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه دعاهم إلى ذلك.

فقالوا له: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح ما ذا ترى؟

فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل، ولقد

جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيا قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادِعوا الرجل، ثم انصرِفوا إلى بلادكم.

فأتَوْا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا ألّا نلاعنك وأن نتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا فإنكم عندنا رضا.. وساق الخبر إلى أن ذكر بعْث أبي عبيدة بن الجراح معهم[1].

نستنتج من الحوار السابق ما يلي:

١- التسامح معهم فيما يقومون به من شعائر وعدم الإنكار عليهم عندما نكون في حالة حوار معهم، نلحظ ذلك مما ورد في رواية ابن إسحق أنهم قاموا يصلون تجاه المشرق في المسجد النبوي، فقال الرسولﷺ : دعوهم.

٢- أهمية أن يكون الحوار مع علمائهم، ممن يعرف أصول مذهبهم، لأن عوامهم عادة إنما يتبعون أحبارهم ورهبانهم إلا من رحم الله ممن عنده رغبة في البحث وتحري الحقيقة مع الانتباه إلى أنهم مختلفون فيما بينهم وأنهم طوائف شتى حسب نظرتهم إلى المسيح عليه السلام.

٣- دعوتهم بصريح القول وتعريفهم أنهم بدلوا وغيّروا، وأن دين الإسلام هو الدين المقبول عند الله دون مواراة ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٨٥).

٤- بيان انحراف عقائدهم وتنافيها مع ما يدعونه من اتباع ملة إبراهيم أو شريعة عيسى عليه السلام، ولهذا لما قال الرسول الكريم للحبرين: أسلما.

١- ابن هشام السيرة النبوية، ج٢/١٧٠.

قالا: أسلمنا. قال: كذبتما، منعكما أن تُسلما ادعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب...الخ.

٥- الاهتمام بما جاء في القرآن الكريم خاصة صدر سورة مريم التي أنزلت للرد على نصارى نجران ومن شاكلهم، لاشتمالها على كثير من شبههم والرد عليها.

ولهذا نجد أن جعفر قد قرأها على النجاشي فبكى، فتلاوة آيات الله لها وقع قوي لما فيها من البلاغة وقوة الحجة.



الفصل الرابع

منهجية الحوار

أولاً: شروط الحوار وآدابه.

نفرد هذ الجزء من الدراسة للحديث عن أهم ما ينبغي أن يتميز به أسلوب الحوار من أسس وشروط وآداب مسترشدين بنصوص الكتاب والسنة وما تفتقت عنه خبرة العقلاء وما يستفاد من سيرة العلماء، لما لمعرفة ذلك من أثر بالغ في الإقناع والتأثير والإلزام، ومعرفة هذه الشروط والآداب ضروري في هذا العصر الذي نحن بأمس الحاجة للاهتداء بهدي الإسلام وحكمة الحكماء وخبرة العقلاء لتكون ضوابط ومنارات لكل عالم وكاتب وداعية وطالب علم في تواصله وعلاقاته بالآخر.

إن الدارس لنصوص الكتاب والسنة النبوية والمتدبر لهما يستنبط منهما ما يلي:

١- مخاطبة العقل:

إن هدف الحوار هو الإقناع والوصول إلى الحق وتفهم وجهة نظر الآخر، وذلك لايكون إلا بالاعتماد على الحجة والمنطق، وحث الآخرين على استعمال عقولهم والتدبر والتفكر فيما يُدعون إليه بعيداً عن العواطف ونزعات النفس، وهذا هو الشرط الأهم في أي حوار بين العقلاء، والنصوص تحاور العقل لأنه القادر وحده – إضافة إلى ما فُطر عليه الإنسان –على التوصل إلى الحق، لأن عقل الإنسان هو مفتاح مكوناته من نفس وجسد ونوازع خير وشر، ولأن العقل الإنساني طريق الوعي المطلوب والبعد عن الخرافة والأساطير واتباع الأعراف دون تفكير.

ومع أن الإنسان مفطور على معرفة الله تعالى وحب معرفة الحق واتباعه، إلا أن البيئة الفاسدة وشهوات الدنيا وسلطانها قد تحجب عنه نور الفطرة وتجعله يجادل ولا يسلم بسهولة، لهذا كان الحوار العقلي من أجل أن يسلم الإنسان باقتناع وإرادة كاملة، وليكون الإيمان والانقياد حالة دائمة.

والمتدبر في نصوص الكتاب والسنة يجد أن الصبغة العامة فيها هي مخاطبة العقل الذي هو مناط التكليف، والحرص على أهمية الإقناع والمنطق السليم.

وقد جعل الله تعالى العقل موضعا لمعرفة الحق وتقبله، وأثنى على أصحاب العقول السليمة الذين يستعملونها في التفكر والنظر في ملكوت السماوات والأرض:

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ (النحل: ١٢)، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).

وقد دعا القرآن ، في حواره للمشركين، إلى أن يبتعدوا عن الأجواء الانفعالية وبعطوا العقل حقه في التفكير والتدبر

ومن عوامل نجاح الحوار أن يتم في الأجواء الهادئة؛ ليبتعد التفكير فيها عن الأجواء الانفعالية التي تحجب الإنسان عن الوقوف مع نفسه وقفة تأمل وتفكير، فإنَّه قد يخضع للجو الاجتماعي، ويستسلم لا شعورياً مما يفقده استقلاله الفكري:

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ (سبأ: ٤٦).

«فقد جعل القرآن اتهام النبي ﷺ بالجنون خاضعاً للجو الانفعالي العدائي لخصومه؛ لذلك دعاهم إلى الانفصال عن هذا الجو والتفكير بانفراد وهدوء»[1].

---

١ -عبد الرحمن حللي، الشبكة الإسلامية، المركز الإعلامي، ٢٠٠١/٦/١٠.

نماذج من الكتاب والسنة فيها إرشاد لاستعمال الخطاب العقلاني في الحوار:

وهي تدل على أن طريق الإقناع والخطاب العقلاني أساس مهم من أسس الحوار:

أولاً: نصوص من القرآن الكريم:

- فمنها: الآيات التي تحاور المشركين وتطلب منهم استعمال عقولهم للنظر في ملكوت الله والاستدلال به على مبدعه تعالى:

مثل قوله: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ (الطور: ٣٥).

فهذه الآية تخاطب العقلاء وترشدهم إلى التدبر والنظر في مسألة الخلق، وهو أن هناك ثلاثة احتمالات فقط: فإما أن يكونوا قد خُلقوا من لا شيء، أو أنهم خلقوا أنفسهم، أو أن لهم خالقا وهو الله تعالى، والاحتمالان الأولان باطلان فثبت الاحتمال الأخير وهو الحق الذي تدل عليه الفطرة ويشهد له الوجود المبدع.

- ومنها الآيات التي تُرشد إلى البعد عن التقليد الأعمى الذي يعني إلغاء العقل:

فقد أوضح القرآن الكريم أن الكفار في انحرافهم عن منهج الله تعالى ورفضهم لدعوات المصلحين لا متمسك لهم من كتاب أو منطق، إنما هو التقليد الأعمى، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٠).

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٣ - ٢٤).

فالقرآن الكريم، هنا، يخاطب عقولهم ويدعوهم إلى التفكر في منهجهم القائم على التقليد وليس الاقتناع، ويجعل واجبهم احترام عقولهم وتقدير المنطق والحجة وماينفعهم في الدنيا والآخرة وليس العصبية والتقليد الأعمى، »وهذا يدل على أن مبنى هذا الدين بما فيه من عقائد وأحكام إنما هو على العقل والمنطق، ولذا كان من أهم شروط صحة الإيمان بالله تعالى وما يتبعه من أمور اعتقادية أن يقوم على أساس من اليقين والفكر الحر دون أدنى تأثر بأي عرف أو تقليد»[1].

- **ومنها الآيات التي ترشد إلى استعمال العقل في مسألة التوحيد**، وأن المشركين إنما خالفوا منطق العقل، فافترض لهم أن هناك آلهة أخرى مع الله فما هي نتيجة ذلك؟: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ الإسراء**وقال تعالى**: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الأنبياء: ٢٢.

وهذا من باب فرض المحال من أجل المحاورة والإقناع وبيان تهافت الرأي الآخر بأسلوب منطقي وعقلي، ويدل على الثقة في المبادئ وانسجامها مع مقتضى العقل والمنطق.

وكما حاورهم الله تعالى في ادعائهم نسبة البنات إلى الله تعالى ليكشف عما فيها من بعد عن المنطق والعقل، فهو يُحاورهم في عقيدة الشرك ليبين لهم أن هذه الآلهة لو فُرض أنها وجدت لكان ذلك سببا في فساد الكون بسبب المغالبة والمنافسة وإرادة العلو.

قال الرازي: «قال المتكلمون: القول بوجود إلهين يُفضي إلى المحال، فوجب أن يكون القول بوجود إلهين محالا، إنما قلنا إنه يُفضي إلى المحال لأنا لو فرضنا وجود إلهين فلا بدَّ وأن يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات، ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد

---

١ - البوطي، فقه السيرة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١١، ص: ٧٥.

وتسكينه، فلو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه والآخر تسكينه، فإما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أو لا يقع واحد منهما وهو محال»[1].

ثم أضاف: «إن الشركة عيب ونقص في الشاهد، والفردانية والتوحد صفة كمال، ونرى الملوك يكرهون الشركة في الملك الحقير المختصر أشد كراهية، ونرى أنه كلما كان الملك أعظم كانت النفرة عن الشركة أشد، فما ظنك بملك الله عز وجل وملكوته، فلو أراد أحدهما استخلاص الملك لنفسه فإن قدر عليه كان المغلوب فقيرا عاجزا فلا يكون إلها، وإن لم يقدر عليه كان في أشد الغم والكراهية، فلا يكون إلها»[2].

الخطاب العقلي ومقاصده في السنة النبوية:

في السنة النبوية كثير من النصوص التي تؤكد مبدأ مخاطبة العقل في الحوار وترسخ أسسه. فمن ذلك:

- ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده، عن أبي أمامة رضي الله عنه: «أن غلاما شابا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أتأذن لي في الزنا؟فصاح الناس.

فقال ﷺ قرّبوه، أدْنُ، فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال ﷺ: أتحبُّه لأمِّك؟فقال: لا، جعلني الله فداك ، فقال: «كذلك الناس لا تحبه لأمهاتهم» «أتحبه لأختك؟قال: لا. قال: كذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم»،... وذكر العمة والخالة، وهو يقول: لا، جعلني الله فداك، وهو يقول: «وكذلك الناس لا يحبونه»، ثم وضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: «اللهم طهّر قلبه واغفر ذنبه وحصّن فرجه»، فلم يكن شيء أبغض إليه منه – يعني الزنا[3].

١- الرازي، التفسير الكبير، ج٢٢/١٥٠.

٢- الرازي، التفسير الكبير، ج٢٢/١٥٣.

٣- مسند أحمد، المكتب الإسلامي، ط١، ج٥/٢٦٥ .

هذا الحوار النبوي في توجيه الشاب المذكور يُعد معلماً تربويا ومنهجا دعويا وأسلوباً حكيماً في توجيه الشباب وإيثار الإقناع العقلي في معرفة الصحيح من الخطأ في التصرفات، مع ربط ذلك بسنن المجتمع وأعراف الناس، وإيقاظ الفطرة في النفس ببعث الشهامة والغيرة في النفس، ثم إيقاظ حب العدالة في التصرفات بطريقة إقناعية: (أتحبه لأمك؟!) (أتحبه لأختك؟!).

فقد يتجاوز النبي ﷺ هنا أسلوب الوعظ المباشر أو النهي الجازم إلى الحوار الهادىء الذي خاطب فيه عقله وقلبه حتى أيقن رجوعه إلى رشده مع التلطف بالسائل ومداراته، وهكذا ينبغى على كل داعية أن يتوقع مثل هذه الأسئلة سواء ممن يجهل الإسلام أم ممن لا يقيم وزناً لأحكام الله، فالكل بحاجة للحوار والإقناع العقلي، والتذكير بأسس الخير والعدالة والشهامة.

- **ومن ذلك ما أخرجه الترمذي في جامعه**: عن عمران بن حُصين رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأبي: يا حُصين كم تعبد اليوم إلهاً؟ قال أبي:سبعة، ستاً في الأرض وواحداً في السماء. قال: فأيهم تُعدّ لرغبتك ورهبتك؟قال: الذي في السماء. قال: يا حصين، أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك..)[1].

فالنبي الكريم ﷺ خاطب عقل هذا الرجل الذي لم يُسلم بعد وما زال على وثنيته، وأرشده إلى أن الأصل في العبادة أن تكون لمن ينفع أو يضر وهو على كل شيء قدير، دون تلك الآلهة الأرضية المصنوعة من الحجارة أو التمر وما شابه ذلك، فهي لا تجدي نفعا عندما تحزبه الأمور،

وهو تذكير له بأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، فما دام أن الذي في السماء هو الذي تعده لرهبتك ورغبتك فهو حقيق وجدير بأن توجه له العبادة الخالصة.

١- أخرجه: الترمذي في جامعه، كتاب الدعوات، باب٧٠، حديث رقم ٣٤٨٣.

فانظر إلى عقلانية الخطاب، دون أن يكون هناك تسفيه أو تحقير، فالمهم هو أن تصل إلى عقل المخاطب وقلبه لينقاد للحق بكامل إرادته ولينطلق بعد ذلك في فهم دينه والتحمس له عن رغبة وحب داخليين.

٢ - التسليم بإمكانية صواب الخصم:

ولا بد لبداية صحيحة موفقة للحوار من التسليم الجدلي بأنَّ الخصم قد يكون على حق، فبعد محاورة طويلة في الأدلة على وحدانية الله تعالى في سورة سبأ تأتي هذه الآية: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (سبأ: ٢٤).

فطرفا الحوار سواء في الهداية أو الضلال، ثم يضيف على الفور في تنازل كبير بغية حمل الطرف الآخر على القبول بالحوار: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (سبأ: ٢٥).

فيجعل اختياره هو بمرتبة الإجرام على الرغم من أنه هو الصواب، ولا يصف اختيار الخصم بغير مجرد العمل، ليقرر في النهاية أن الحكم النهائي لله تعالى:

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (سبأ: ٢٦).

إنه الأدب الرفيع في الحوار، والأسلوب الأمثل في إظهار التجرد أن يبين الرسول الكريم في حواره للمشركين أن أحد الطرفين على هدى والآخر على ضلال، ثم يترك تعيين من هو المهتدي ليحفزهم على التدبر والتفكر بأسلوب ليس فيه اعتداد أو تكبر أو رغبة في إظهار التفوق والغلبة، وذلك لأنه محاور يبتغي هداية الناس بالحكمة، ويريد جذب قلوبهم وعقولهم، وليس إفحامهم وإذلالهم...

والحوار بهذا الأسلوب المفعم بالعدالة والبعيد عن التخطئة من أول وهلة هو أحسن السبل إلى استمالة قلوب المجادلين المعاندين الذين صدتهم عوامل الجاه والسلطان وما ألفوه من إرث الآباء، وهو أجدر بأن يدفعهم للتدبر والتفكير خاصة من كان منهم ذا عقل وهمة يبحث عن الحق، كما أن هذا المنطق القرآني جدير بأن يحذو الدعاة وطلبة العلم حذوه أثناء الحوار والمناقشات، فليس شيء أضر على الحوار العلمي من التعصب والهوى وادعاءاحتكار الحقيقة...

إن قبول الحق ولو كان مُرّاً، وترك العصبية هما صفة الأحرار أصحاب المبادىء السامية الذين لا يرضون لأنفسهم أن يكونوا دعاة عصبية أو تزمت لرأي معين، بل ديدنهم البحث عن الحقيقة والإنصاف والتجرد في الحوار. والمؤمن العاقل هو الذي يتأسى بما أرشدت إليه النصوص من أهمية الإنصاف والتجرد في أثناء الحوار والتواصل مع الآخرين .

ومن هذا الباب قوله تعالى:

﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ (القصص/٨٥).

وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٩ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ (القصص: ٤٩ - ٥٠).

قال ابن حزم – رحمه الله: «ولم يأمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يقول هذا شكا في صدق ما يدعو إليه، ولكن قطعا لحجتهم، وحسما لدعواهم، وإلزاما لهم، مثل ما التزم لهم من رجوعه إلى الأهدى واتباعه الأمر الأصوب، وإعلاما لنا أن من لم يأت بحجة على قوله يصير بها أهدى من قول خصمه ويبين أن الذي يأتيه هو من عند الله عز وجل – فليس صادقا، وإنما متبعا لهواه»[١].

---

١ – ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج١/١٤.

ولهذا كان كثير من علماء الأئمة سلفهم وخلفهم ينهون عن مقابلة أهل البدع ممن عُرف عنهم المكابرة والإصرار على الباطل وعدم قبول الحق، وقد جاء في رسالة للإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- أجاب فيها عمن سأله عن حكم محاورة بعض أهل البدع والرد عليهم: «وإنما الأمور في التسليم والانتهاء إلى ما كان في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لا في الجلوس مع أهل البدع والزيغ لترد عليهم، فإنهم يلبسون عليك ولا هم يرجعون، فالسلامة إن شاء الله في ترك مجالستهم، والخوض معهم في بدعتهم وضلالتهم..»[1].

وهذا يقدم قاعدة في منهجية الحوار، وهوأنه لا ينبغي بحال من الأحوال أن يكون الغرض من الحوار شيئا غير الوصول إلى الحقيقة.

٣-الإنصاف والرجوع إلى الحق عند ظهوره:

بحثا عن سبيل يكون فيه الحوار محمودا وذا فائدة، ومن أجل الحفاظ على الوقت من أن يضيع في مجادلات باطلة ومهاترات خائبة، ينبغي أن لا يكون الحوار إلا مع من عُرف منه الإنصاف وقبول الحق أو يُظن به ذلك، وهذا مطلوب من الطرفين، وذلك من خلال إشعار الطرف الآخر بالبعد عن التعصب أو أية مؤثرات، وأن رأيه ممكن أن يكن صوابا مقابل أن يعترف هو أن رأي غيره قابل للصواب، حتى يستمع للآخر بإقبال وتجرد، رغبة في الوصول إلى لحقيقة التي ينشدها كل عاقل و منصف

ومنشأ الباطل من نقص العلم أو سوء القصد كما قال تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (النجم: ٢٣).

وحسن القصد في الحوار يؤدي إلى الإنصاف فيكون المحاور عادلاً في أحكامه لايهدف إلى غلبة أو شهرة ونحو ذلك .

وهذا كله يعني الصدق في الحوار والخضوع للحق، مما يوجب ألا يرضى

١- ابن بطة، الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، تحقيق رضا معطي، دار الراية، ط١ ج٢/٤٧٢.

الإنسان العاقل بأن يخوض حوارا مع من يظن أنه غير صادق في حواره، لأن ذلك سيكون إهدارا للوقت، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (التوبة: ١١٩).

وقد افتتح الإمام البخاري كتابه الصحيح بالحديث الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى..**)[١]، وكان قصده من ذلك إظهار حسن مقصده وابتغائه وجه الله تعالى في التصنيف والإفادة، وهي دعوة منه –رحمه الله– لطلبة العلم إلى أن يكون الإخلاص ديدنهم والصدق هدفهم.

وإخلاص القصد في مهمة الحوار يتطلب تنقية النفس من حظوظها البشرية لئلا يكون الهدف أعراض الدنيا من شُهرة أو مال أو جاه، وقد جاء في الحديث الصحيح: (**من تعلّم علما مما يُبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرَضا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة**)[٢].

والحوار إذا كان في سبيل الله فإنه عمل من أعمال الجهاد، وهو الجهاد باللسان، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم**)[٣].

لهذا ينبغي لكل من يريد أن يدخل في حوار أن يراقب نيته، وأن يكون هدفه المصلحة وإحقاق الحق، ولا يكون قصده التفوق على الآخرين ولا انتزاع إعجابهم من خلال إظهار البراعة، فذلك كله يحبط العمل، وهو أدعى للفشل.

١–صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، الحديث رقم ١، ج١ ص: ٢.

٢–أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله (٣٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والحاكم في المستدرك على الصحيحين، ج١/٨٥، وقال صحيح .

٣– أخرجه: النسائي، في سننه، كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد /ج٦/٧، رقم: ٣٠٩٦، حديث صحيح.

وليتذكر المحاور دائما قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ق: ١٨.

وروي عن الشافعي قال: «ما ناظرت أحدا قط على الغلبة ووددت إذا ناظرت أحدا أن يظهر الله الحق على يديه»[١].

وهذا منه رحمه الله إرشاد إلى ما ينبغي أن يكون عليه المحاور من توجيه القصد إلى إظهار الحقيقة دون التفات إلى حظ النفس في الغلبة والظهور. وهذا غاية الإنصاف أن تُشفق على الطرف الآخر من أن يخطئ، يُستثنى من ذلك صاحب البدعة المكابر الذي لا علاج له إلا بإظهار زيف أفكاره ومجانبتها للصواب.

ومن حق المحاورة أن يُراد بها وجه الله عز وجل، وأن يقبل كل طرف ما تبين من وجه الحق، ولو سلك الكتاب والمتحاورون هذا المسلك في مباحثهم ومناظراتهم لاتفقوا على مسائل كثيرة اختلفوا فيها.

والقلم لا يقوى إلا إذا استمد قوته من القلب بالإخلاص وطلب الحقيقة والإنصاف، فإذا كان متعصباً وأعيته الحجج والبراهين لجأ إلى المراوغة والسب والمهاترة، وهو يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل: ١٢٥).

قال القرطبي: «لا تصح المناظرة ويظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونوا متقاربين أو مستويين في مرتبة واحدة من الدين والعقل والفهم والإنصاف، وإلا فهو مراء ومكابرة»[٢].

والإنصاف من الخصال التي تترسخ في البيئة الصالحة وفي الأنفس التي رضعت من التربية الصحيحة، ومتى فقد الناس هذا الخلق فقدوا جانبا عظيما من أسباب السعادة، وهو طريق التفرق والنزاع.

١- المجموع، النووي، ج١/١٢.

٢- تفسير القرطبي، ج٣/٢٨٧.

سبب البعد عن الإنصاف وعلاجه:

خُلُق العناد وعدم الإذعان للحق قد يكون وليد الحسد، وقد ينشأ عن طبيعة الغلو في حب الذات. وللغلو في حب الذات فرعان، حب الانفراد بالفخر، وإيثار النفس على كل شيء حتى الحق، فالأول يقول للمصيب أخطأت، والثاني هو الذي يحمل الرجل على التعصب لرأيه والدفاع عنه وهو يعلم أنه في خطأ مبين.

وطريق تنشئة الناس على خلق الإنصاف تتمثل في التنقيب على علتي الحسد والغلو في حب الذات، فإن وجد لهما في نفس الناشئ أثرا روّضه بالحكمة والموعظة الحسنة، وإذا كان منشؤه الحسد فله ملاحظة أن النعمة تصل إلى صاحبها من علام الغيوب، وهو لا يرسلها إلا لحكمة، وأنه لا يجوز الاعتراض على المنعم.

وإذا كان منشأ الحرص على الانفراد بالفخر هو الغلو في حب الذات كان على المربي تهذيب عاطفة حب الذات في نفس الناشئ حتى تكون معتدلة، ثم يعود بعد ذلك يُذكر الناشئ بفضائل الإنصاف وآثاره الطيبة على الفرد والمجتمع، وما هي الخسارة الناشئة عن الاستهانة بها.

عواقب قلة الإنصاف:

- قلة الإنصاف تجر إلى التقاطع، بينما الإنصاف يدعو إلى الألفة ويؤكد صلة الصداقة، فإذا كنت في مجلس حوار وقرر الطرف الآخر رأيا واضح الحجة فغلبك ما في نفسك وحاولت أن تصوره للناس خطأً فقد ألقيت بينك وبينه عداوة، فإذا خضعت لحجته وأعربت له عن استحسان رأيه فقد مددت بينك وبينه سببا من أسباب الألفة، إذ يشعر من إنصافك أنك لا تحمل له ضغناً ولا تكره له أن ينال حمداً، فإن سبق هذا الإنصاف خصومة شعر أنك خصم شريف فيسعى لأن تنقلب الخصومة سلماً ويصير التقاطع ولاءً.

- وقلة الإنصاف تُسقط احترام الشخص من العيون لأنها تُظهره بمظهر

المعاند للحق العاجز عن تمييز الحق من الباطل والصواب من الخطأ.

- وقلة الإنصاف تحول بين الرجل وبين أن يزداد علماً، فمن لم تُنصفه من أهل العلم وجد في نفسه تثبيطا عن أن يُسرع إلى إفادتك أو يفيض لقول في مذاكرتك فيفوتك حظ من العلم، ولولا عدم إنصافك لازددت به قوة في الفهم وسعة في العلم.

- وقلة الإنصاف تخذل العلم وتطمس شيئًا من معالمه، والإنصاف يؤيد العلم ويجعل موارده صافية سائغة، ولو أخذ الإنصاف حظه من نفوس جميع الباحثين عن الحقائق لقلّت مسائل الخلاف في كل علم، فيكون حفظ العلوم أيسر، ومدة دراستها والرسوخ فيها أقصر[1].

وقد يسبق الحوار شيء من البغضاء لكن هذا لا يعني ترك الإنصاف، بل إن الورع الحقيقي يظهر في مثل هذه المواقف. ولذلك أرشد القرآن إلى هذه الناحية في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

ولنا في سيرة الرسول ﷺ خير أسوة في الإنصاف والرجوع إلى الصواب، فمن ذلك:

- محاورة الحُباب بن المنذر بن الجموح:

فقد روى ابن إسحق في سيرته: أن الحباب بن المنذر قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نُغوِّر ماوراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماءً ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي».

١- بتصرف، عن مجلة نور الإسلام، ربيع الأول، ١٣٥٢ هـ، ج٣، مجلد٤، محمد الخضر حسين، ص: ١٤٩-١٥٢.

فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه ثم أمر بالقُلُب فغُوِّرت[١].

ويدل هذا الحوار الذي جرى بين رسول الله ﷺ والحباب بن المنذر في شأن المكان الذي نزل فيه أن تصرفات النبي ﷺ فيما يتعلق بأمور الدنيا والتدابير العسكرية ونحو ذلك ليست كلها من نوع التشريع، بل هو في كثير من الأحيان يتصرف من حيث إنه بشر من الناس يفكر ويدبر كما يفكر غيره، فقدأشار الحباب بالتحول عن المكان الذي هو فيه فوافقه عليه السلام واستصوبه، وذلك بعد أن استوثق الحباب رضي الله عنه أن اختيار النبي ﷺ لذلك المكان ليس بوحي من عند الله[٢].

- **حادثة تأبير النخل:**

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن رافع بن خَديج قال: قدم نبي اللهﷺ المدينة وهم يَأْبُرُونَ النَّخْلَ، يقولون يُلقحون النخل. فقال: ما تصنعون؟

قالوا: كنا نصنعه. قال: «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا»، فتركوه فنفضت أو فنقصت. قال: فذكروا ذلك له فقال: «إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر».

قال عكرمة- أحد رواة الحديث : أو نحو هذا .

ثم ساقه مسلم من حديث عائشة وأنس بن مالك رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ مرّ بقوم يُلقحون، فقال: لو لم تفعلوا لصلح.

١- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، ، دار الخير، بيروت، ط١، ج٢ /١٩٧.

وانظر كتاب الإصابة لابن حجر العسقلاني، ج٣٠٢/١ حيث عزاه لابن إسحق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير.

وقد وصله الحاكم من وجه آخر عن الحباب وسكت عليه ، المستدرك: ج٤٢٦/٣.

٢- البوطي، فقه السيرة النبوية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١١، ص: ١٦٢.

قال: فخرج شيصاً، فمرّ بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا. قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم[1].

فهنا لم يأنف النبي الكريم – وهو القائد والمعلم– من أن يرجع إلى رأيهم بعد أن ظهر له أن الصواب في أمر دنيوي، وهذا غاية الإنصاف، وفيه تعليم للناس أن اتباع الصواب والإفادة من أهل الاختصاص هو السلوك السليم والتصرف القويم مهما كانت منزلة الرجل، وهو دليل على تغليب المصلحة العامة على أي اعتبار آخر.

وقد اقتدى الصحابة رضي الله عنهم بخلق الإنصاف في محاورات الرسول ﷺ ، ومثلوه في أكمل صوره، كما قدمت سيرة كبار العلماء نماذج إيجابية في خلق الإنصاف لمن يحاورهم.

فهذا الشافعي رحمه الله المتوفى سنة ٢٠٤هـ، يقول: «ما ناظرت أحدا على الغلبة، ووددت إذا ناظرت أحدا أن يظهر الحق على يديه» وقال: «ما ناظرت أحدا قط إلا على النصيحة»[2].

وهذا من الكلام الرائق النادر الذي يدل على صفاء النفس وغلبة الورع، فلا يهمه أظهر الحق على يديه أم على يدي خصمه، لأن الهدف من الحوار هو النصيحة وبيان الحق، وليس حب الظهور.

وقد ناظر الإمام الشافعي فقهاء زمانه وحاورهم بالقرآن والسنة كما حاور المعتزلة في كثير من آرائهم كما هو مثبت في كتابيه «جماع العلم» و«الرسالة»، وتجد فيهما علمًا غزيراً وأسلوبا فريدا في المحاجة والمحاورة وأساليب الإقناع وقواعده.

– وقال عبد الرحمن بن مهدي: ذاكرت القاضي عبيد الله بن الحسين في حديث – وهو يومئذ قاض – فخالفني فيه، فدخلت عليه بعد وعنده

١– صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا.. ج٤/١٨٣٦ رقم١٤٢.

٢– البيهقي، مناقب الشافعي، تحقيق سيد صقر، دار التراث، القاهرة، ط١، ج١/١٧٣.

الناس سماطين- صفين - فقال لي: ذلك الحديث كما قلتَ أنت، وأرجع أنا صاغرا.

فهذا العالم بهذا التواضع قد أحسن إلى نفسه إذ أخذ بفضيلة الإنصاف، وأحسن إلى الناس إذ علمهم كيف يعترفون بالخطأ إذا أخطأوا ولو عظمت مناصبهم وعلت أقدارهم.

ومما ينبغي التذكير به التوقي من مقابلة المعاند بمثل تصرفه، فإذا كان ديدنه جحد الحق وهو يراه رأي العين فإن الواجب أن لا يتأثر العالم والداعية بهذا الخلق الممقوت وهو يحسب أنه يقابل الخصم بمثل سلاحه، إنما الواجب الامتثال لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت: ٣٤).

واتباع قيم العدل والإنصاف في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: ٨).

فليس هناك سلاح أمضى من الاعتصام بالفضيلة والإنصاف لمحاورة الخصوم المبطلين

٤- التسلح بالعلم والحجة والبرهان

ترشد نصوص الكتاب والسنة إلى أهمية العلم وشرفه وأثره في الدعوة إلى الله، فينبغي للمحاور أن يكون عالما بموضوع الحوار ومواضع الاتفاق والاختلاف، ليكون قادرا على البسط والمجاوبة والنقد البناء .

وهذا مقتضى قوله تعالى مرشدا لعباده: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ .. ﴾ (النحل: ١٢٥) والحكمة تشمل العلم النافع المفيد الذي يثري الحوار.

ويقول تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران : ٦٦).

قال القرطبي: «في الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده، .. وقد ورد الأمر بالجدال لمن علم وأيقن فقال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ النحل: ١٢٥[1].

وقال ابن كثير: هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به، فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم من علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لا يعلمون، فأنكر الله عليهم ذلك، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة)[2].

فينبغي للمحاور أن يتقن ما عنده وما يعتقد به حتى يدافع عن فكرته باقتدار وأمانة، ثم يعرف ما عند الآخر من أفكار ومعتقدات حتى يستطيع الرد والمحاورة، وهكذا كان علماء الإسلام الذين تصدوا للرد على أهل الفرق، حتى إن بعضهم كان يعرض فكرة الخصم و يقررها بأسلوب يعجز عنه الخصم نفسه، وهذا يعطي الطرف الآخر الثقة بعلم من يحاوره فلا يبخسه حقه.

والنص التالي يدل على فهم السلف لشرط العلم في الحوار المفيد:

فقد نقل الشاطبي أن رجلا كتب إلى الإمام مالك: «إن بلدنا كثير البدع وإنه ألّف كتابا في الرد عليهم»، فكتب إليه الإمام مالك يقول له: إن ظننت ذلك بنفسك خفتُ أن تزل فتهلك، لا يرد عليهم إلا من كان ضابطا عارفا بما يقول لهم، لا يقدرون أن يعرجوا عليه، فهذا لا بأس به، وأما غير ذلك

١- تفسير القرطبي، ج٤/١٠٩.

٢- تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، ج١/٣٧٣.

فإني أخاف أن يكلمهم فيخطئ فيمضوا على خطئه أو يظفروا منه بشيء فيطغوا ويزدادوا تماديا على ذلك»[1].

والمطالبة بالدليل من الطرف الآخر عندما يدعي دعوى أمر في غاية الأهمية؛ فقد حاور ابن تيمية ابن المطهر شيخ الشيعة في زمانه وأخذ عليه كثيرا أنه يورد أدلةغير صحيحة وغير ثابتة، ومن أمثلة ما اعترض عليه:

قول ابن المطهر: البرهان التاسع عشر﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾(الزخرف: ٤٥).

أن النبي ﷺ ليلة أسري به جمع الله بينه وبين الأنبياء ثم قال سلهم يا محمد علام بعثتم قالوا بعثنا على شهادة أن لا اله إلا الله وعلى الإقرار بنبوتك والولاية لعلي بن أبي طالب وهذا صريح بثبوت الإمامة لعلي.

قال ابن تيمية: والجواب من وجوه: أحدها المطالبة في هذا وأمثاله بالصحة، وقولنا في هذا الكذب وأمثاله المطالبة بالصحة ليس بشك منا في أن هذا وأمثاله من الكذب لكن على طريق التنزل في المناظرة، وأن هذا لو لم يعلم أنه كذب لم يجز أن يحتج به حتى يثبت صدقه، فإن الاستدلال بما لا تعلم صحته لا يجوز بالاتفاق ، فإنه قول بلاعلم وهو حرام بالكتاب بالسنة والإجماع[2].

٥-أهمية وضوح المرجعية التي يُحتكم إليها عند التنازع

إنَّ وجود المرجعية الموثقة أمر مهم لفض النزاع، وإلا تحول الحوار إلى جدل عقيم خاصة مع وجود التعصب والهوى، ومن هنا بين الله تعالى في كتابه أن المرجعية الصحيحة الهادية إلى سواء السبيل، المخرجة من الظلام إلى النور هي الكتاب والسنة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ

١- الشاطبي، الاعتصام، دار المعرفة، بيروت، ج١/٣٣.

٢- ابن تيمية، منهاج السنة ج٢/٥٦.

تَأۡوِيلًا ﴾النساء. ولهذا نجد كثيرا من الخلاف سببه الجهل بآيات الله أو الجهل بالسنة، أو الجهل بأصول الاحتجاج، فتجد بعضهم يكتفي بالقرآن ولا يقيم للسنة وزنا، وبعضهم يقتصر من السنة على ما وافق القرآن في نظره، و ذلك كله من أسباب الاختلاف، فينبغي أن يُحاور من يعتقد ذلك ببيان لزوم الاحتكام إلى الكتاب والسنة معا لأنهما وحي، ونحن مأمورون بنص الكتاب أن نلتزم بالسنة وأن نحتكم إليها عند التنازع.

قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ (النساء:٦٥).

وعموما، نجد أن القرآن الكريم والسنة النبوية قد رسّخا لنا منهجا واضحا، وهو وسيلة لحماية المسلم من القبول بالخطأ والانزلاق في المهاترات والزيف، و صونه عن اتباع الأسلوب الفظ غير العقلاني و غير العادل في خطابه للآخرين، وهذا المنهج مهم ينبغي استحضاره دائما في أية محاورة أو مناظرة، وذلك لأن الأفكار المنحرفة والمقولات الضالة ليست مقتصرة على ما نقله القرآن والسيرة النبوية عن خصوم الإسلام في ذلك الوقت، إنما هي مقولات مستمرة، وفي كل زمن تظهر أفكار وآراء جديدة ينبغي مواجهتها بروح الحوار وآدابه حتى نصل إلى نتائج ملموسة أو على الأقل إقامة الحجة على الآخرين بأسلوب مقنع.

فكل من دعا إلى شيء من الدين بلا أصل من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ولا تشهد له عمومات النصوص وقواعد الشريعة، فقد دعا إلى بدعة وضلالة، والإنسان في نظره مع نفسه ومناظرته لغيره إذا اعتصم بالكتاب والسنة هداه الله إلى صراطه المستقيم فإن الشريعة مثل سفينة نوح عليه السلام من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وقد قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

وقال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ٣).

فإذا كان المسلم في مقام الدعوة والبيان وفي مقام النظر والحوار فعليه أن يعتصم بالكتاب والسنة ويدعو إلى ذلك، وله أن يتكلم ويبين الحق الذي جاء به الرسول بالأقيسة العقلية والأمثال المضروبة فهذه طريقة الكتاب والسنة وعلماء الأمة، فإن الله سبحانه وتعالى ضرب الأمثال في كتابه، وبين بالبراهين العقلية توحيده وصدق رسله، وأمر المعاد وغير ذلك من أصول الدين، وأجاب عن معارضة المشركين كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴾ (الفرقان: ٣٣)[١].

٦- حسن الانصات للآخر:

إن المحاور الناجح هو من يُحسن الاستماع للآخرين، لأن مجرد حسن الإنصات وتفهم ما يقوله الآخر له أثر بالغ في سروره، ويجعله يثق بقدراتك، ويشعره بصدقك في الحوار وجديتك في الوصول إلى الحق، وهذا يجعله يعاملك بالمثل فيحسن في الاستماع والإنصات إليك، وقد نقل إلينا القرآن الكريم كيف أنصت الأنبياء لأقوامهم وسمعوا منهم مقالاتهم، ثم كروا عليها بالرد والبيان.

وقد روت لنا كتب السيرة قصة محاولات قريش في التفاوض مع الرسول الكريم لثنيه عن دعوته، وأنها أرسلت له أحد وجهاء قريش وهو عتبة بن ربيعة وأنه جلس إلى النبي ﷺ ، فأخذ الرسول الكريم عليه الصلاة والسم يستمع إليه دون مقاطعة.

وفي ذلك الخبر إشارات مفيدة في أصول الحوار منها: الإنصات الكامل حتى يفرغ الطرف الآخر دون مقاطعة، بل إتاحة المجال له إن أمكن لإضافة ما يريده إن كان غفل عن شيء أو نسيه: (أقد فرغت يا أبا الوليد)، وهذا

١ - راجع منهاج السنة لابن تيمية، ج٧/٧٠٢.

غاية في الإنصاف ونهاية في الذوق الرفيع، يحتم على العاقل احترامه وتقديره ومعاملته بالمثل.

وحسن الاستماع صفة ملازمة لطالب العلم سواء كان في حوار أم في مجلس علم، وهذا ما كان يميز أصحاب النبي ﷺ ، فعن أسامة بن شريك قال: (أتيت النبي ﷺ وأصحابُه كأنما على رؤوسهم الطير...)[(١)] يعني من شدة الإصغاء وحسن الاستماع.

وقد قال الضحاك بن مزاحم: «أول باب في العلم الصمت، والثاني استماعه، والثالث العمل، والرابع نشره وتعليمه»[(٢)].

وقال الأصمعي: «سمعت أعرابياً يقول: لا ينتفع الرجل بالقول وإن كان بليغا مع سوء الاستماع»[(٣)].

ومن حسن الإنصات أثناء الحوار عدم مقاطعة المتكلم ، وذلك حتى يتيح له التعبير عن رأيه بدقة، فلا يُعجله في صياغة فكرته فيقصر فيها، ثم إن المقاطعة تُشعر الآخر بإرادة الغلبة وليس الوصول إلى الحق وهذا يلغي الفائدة من الحوار ويبقى مجرد مناورات كلامية وصراخ يسئ أكثر مما ينفع.

قال معاذ بن سعيد: كنا عند عطاء بن أبي رباح، فتحدث رجل بحديث فاعترض له آخر في حديثه، فقال عطاء: سبحان الله ما هذه الأخلاق؟ما هذه الأحلام؟إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم منه به، فأُريه من نفسي أني لا أحسن منه شيئا[(٤)].

- ومن أدب الحوار المستفاد: أن يُقبل المحاوِر على الطرف الآخر بوجهه ولا يلتفت عنه، ولا يتحدث مع غيره خلسة لئلا يتوهم الآخر سوء نية أو عدم

١- أبو داود في سننه، كتاب الطب، رقم ٣٨٥٥، والترمذي، كتاب الطب، رقم ٢٠٣٨، وقال حسن صحيح

٢- الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج١/١٩٤.

٣-المرجع السابق، ج١/١٩٥.

٤- المرجع السابق، ج١/٢٠٠.

اكتراث مما يُفقد الثقة ويورث الشك.

وقديما قال الشاعر:

من لي بإنسان إذا خاصمته — وجهلت كان الحِلمُ ردَّ جوابه
وإذا صبوت إلى المدام شربت من — أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يُصغي للحديث بسمعه — وبقلبه ولعله أدرى به![1]

٧-الإيجاز وعدم الاستطراد:

وذلك من خلال التركيز على موضوع الحوار دون الخروج إلى أمور جانبية، فالحديث ذو شجون وكثرته قد تضيع أصل الفكرة، والكلام الكثير يُنسي بعضه، ومما يثير الانتباه أن كثير امن مجالس الحوار والمناظرات ينتقل فيها الحديث من قضية إلى قضية وتتداخل الأفكار والخواطر بحيث تضيع الفكرة الأصلية، وفي ذلك ما فيه من تضييع الوقت وإعطاء الحوار انطباعاً غير حميد أقرب إلى المهاترة والمجادلة العقيمة، وعند استعراض محاورة الأنبياء لأقوامهم، وكذا ما حاور الله به عباده نجد اللفظ الموجز والكلام البليغ المعبر، دون الخوض في التفاصيل والأمور الجانبية، ولهذا كان كل نبي يؤكد على الأهم مما يحتاجه قومه.

٨- الرفق بالمحاور:

- وتأكيداً لهذا المنهج نهى الله تعالى المؤمنين عن إتباع أساليب السفهاء، ومجاراتهم في السبِّ والتسفيه لمعتقدات الآخر: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ (الأنعام: ١٠٨).

ويكون الرفق واللطف أثناء الحوار من خلال إرشاد الطرف الآخر إلى جواب اعتراضه من دون إيذائه أو تسفيه رأيه، بل بمعاتبته بطريقة عقلانية.

١- فنون الحوار والإقناع، محمد ديماس، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ص: ٣٨.

والرفق في الحوار هو مقتضى قوله تعالى مخاطبا الدعاة إلى هذه الخصلة المهمة المؤثرة:

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ.. ﴾ (النحل/ ١٢٥).

فالرفق واللطف يُدخل الإقناع إلى القلوب والعقول بكل يسر، ويهدي القلوب النافرة، بخلاف الزجر أو التوبيخ أو أسلوب الإذلال والقسوة والترفع..

والجدال بالتي هي أحسن يعني أن لا يكون هناك تحامل على المخالف ولا تسفيه لقوله أو تقبيح، حتى يطمئن إلى المحاور ويشعر أن ليس هدفه هو المغالبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها وهي «لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة، وسرعان ما يختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها، والجدل بالحسنى هو الذي يُطامن من هذه الكبرياء الحساسة، ويُشعر المجادل أن ذاته مصونة وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها، والاهتداء إليها في سبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الآخر»[1].

ومما جاء في كتاب الله من آيات فيها إرشاد إلى استعمال الرفق في الحوار:

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس: ٧٧-٧٩).

فنلحظ كيف أن القرآن الكريم أجاب على اعتراض هذا المشرك المعاند الذي أتى بعظم حيوان بالي وذرّه في الهواء وقال: «يا محمد أترى ربك يحيي

١-سيد قطب، في ظلال القرآن، ج١٣/ ١١٠.

هذا بعد ما قد رمَّ؟» فأجاب القرآن على هذا الاستبعاد بتذكيره هو بخلقه من التراب، وأنه سوف يبلي كما بلي هذا العظم: (ونسي خلقه)، ثم أتى بحكاية اعتراضه ثم أجاب عليها دون أن يعنفه: (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة..)

وقوله: «فإذا هو خصيم مبين» فيه آية من آيات الله، لأن النطفة جسم ومنها يكون الإنسان الناطق العاقل «خصيم مبين»، فإبداع النطق والفهم أعجب وأغرب من إبداع الخلق والجسم[1].

- واستمع إلى قوله تعالى وهو يحاور أهل الكتاب ويدعوهم إلى الرجوع إلى الكلمة العادلةالتي لا بد منها لكل منصف:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤) نجد في هذا الحوار دعوة فيها لطف إضافة إلى البيان الصريح للأمر المهم الذي ينبغي أن لا نجامل فيه وهو أمر التوحيد، ويظهر اللطف والرفق في هذا الحوار من كون الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين لايريدون أن يتفضلوا على أهل الكتاب ولا أن يظهروا أنهم معتدون بأنفسهم، بل يريدون كلمة سواء يذعن لها الجميع ويحترمونها، الكل أمامها سواسية، لا يفخر أحد عل أحد ولا يذل أحد لأحد، بل الكل عبيد لله تعالى، إنها دعوة صريحة لا لبس فيها وليس فيها إيذاء لأحد.

ونلحظ أسلوب القرآن الباهر الرائع في مخاطبة أهل الكتاب بهذا الاسم الموحي بتذكيرهم بالكتاب المنزل على أنبيائهم مما يعني أهمية رجوعهم لما فيه من تبشير بخاتم الأنبياء والمرسلين، دون مخاطبتهم مثلا بوصف الشرك أو التحريف أثناء حوارهم ودعوتهم للخضوع للحق.

١- الرازي، التفسير الكبير، ج٢٦/١٠٩.

- ومثل ذلك نجده في خطاب إبراهيم عليه السلام، عندما كان يحاور أباه ويدعوه إلى اتباع التوحيد: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ (مريم : ٤٢).

فنلحظ التعبير بكلمة « يا أبتِ » وما فيها من استعطاف وتلطف وأدب مع الأب المشرك أثناء حواره وتذكيره بالله.

وكذا قول نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي .. ﴾ (هود:٢٨).

كيف استهل جوابه بكلمة «يا قوم»، تلطفا بهم واستمالة لقلوبهم.

والرفق واللين له تأثير في كسب قلوب الناس واستمالتهم، لأن الرفق بالمحاور الآخر نوع من الإحسان، والناس مجبولون على حب من أحسن إليهم، ولهذا أُمر الأنبياء أن يدعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يدفعوا السيئة بالحسنى، وقد كان النبي الكريم أولى الناس بهذا فأثنى الله عليه بحسن تعامله وحسن مخاطبته:

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

فغلظة القلب والفظاظة تنفر الناس، والأصل في المحاور أن يجمع الناس ويؤلف بين قلوبهم، لا أن يكون سببا في الفرقة والتباعد والتشرذم.

وفرعون مع غروره وتكبره، ومع علم الله تعالى أنه لن يؤمن إلا أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يخاطبه برفق ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (طه: ٤٣ - ٤٤).

وقد تبدأ المحاورة مع سيطرة روح الخصام والجدال على أحد الطرفين أو كليهما، فإذا ألان أحدهما القول ورفق بالآخر ودفع بالحسنى، أثّر ذلك في جوّ الحوار وأشاع فيه روح المحبة والاحترام، وهذا ليس بالسهل،

إنما يحتاج إلى ترويض النفس على هذا الخلق الكريم، لأن أغلب الناس يميلون إلى سرعة الغضب والقسوة على الآخر، ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٥).

وفيالقصة الآتية بيان مدى تأثير الرفق بالمدعوين:

فقد روى ابن إسحق قصة إسلام أُسَيد بن حُضير وسعد بن معاذ على يد مصعب بن عُمير –رضي الله عنهم– وجاء فيها: «فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبالك، أنطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارَيْنا ليسفِّها ضُعفاءنا فازجرهما وانهرهما عن أن يأتيا دارَينا، فإنه لولا أن أسعد بن زُرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدما، قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير:

هذا سيد قومه قد جاءكم فاصدق الله فيه.قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما متشتما، فقال: ما جاء بكما إلينا تُسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟

قال: أنصفت؛ ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا– فيما يُذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم الدخول في هذا الدين؟..»[1].

إن الرفق والملاينة واضحة جدا في تصرف مصعب بن عمير وهو الداعي إلى الله تعالى، فقد قابل تشتم الطرف الآخر بالحسنى والكلام الرقيق

١– ابن هشام السيرة النبوية، مرجع سابق: ج٢/٥٩.

داعيا له للاستماع إن شاء، فلم يجد الآخر بدا من الاستجابة حتى هداه الله تعالى.

وعند تدبر سيرة الأنبياء عموما، نجد أن منهجهم اتسم بالرفق في دعوة أقوامهم واللطف في حوارهم معهم.

ومعلوم أن « من طبيعة الحوار أن يكون موضوعه مختلفا فيه بين الطرفين، وربما ترتب عليه تخطئة الخصم، أو تضعيف دليله أو الرد عليه، أو غير ذلك، الأمر الذي قد يُثير الغضب، أو يُلجىء المحاور إلى اتهام خصمه في علمه أو دينه أو شخصيته أو خلقه، بل قد يُلجىء المحاور إلى سلوك أساليب غير منهجية كالمراوغة أو الكذب، أو غيرهما.

ولذلك فإنه ينبغي على المتحاورين ضبط النفس وشرح الصدر، وأن يتوقع كل منهما من الآخر بعض الجهل واحتمال الخطأ، بل يفترض ذلك في نفسه هو»[1].

٩-الاهتمام بالأولويات:

وهو التركيز في المحاورات على ما ينفع الناس وما يحتاجونه، فهناك مصالح كثيرة، ومشاكل عديدة، فيختار المحاور ما فيه فائدة عاجلة للناس، ويؤجل الحديث في غيرها إلى أن يحين أوانها، وهذا القرآن الكريم في نزوله كان متدرجا، وقد بدأ نزول آيات العقيدة والإيمان والبعث والنشور والترغيب والترهيب، فلما تمكن الإيمان من قلوب الناس نزلت الأحكام.

ونجد في كتاب الله تعالى كثيرا من المواضع فيها تعليم لنا إلى الالتفات نحو المهم، فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ (البقرة: ١٨٩).

ذكر أهل التفسير أن بعض الصحابة سألوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول

١- محمد ديماس، فنون الحوار والإقناع، ص: ١٠٢.

اللّه، ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقا ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص يدق حتى يعود كما كان، لا يكون على حال واحد؟ فنزلت[١].

قال العلماء: إن هذا من الأسلوب الحكيم، ويُسمّى القول بالموجب، وهو تلقي السائل بغير ما يتطلب، بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيها على أنه الأولى بحاله، فيكون في هذا الجواب إشارة إلى أن الأولى على تقدير وقوع السؤال أن يسألوا عن الحكمة لا عن السبب لأنه لا يتعلق به صلاح معاشهم ومعادهم، والنبي إنما بُعث لبيان ذلك[٢].

وقد كان النبي ﷺ القدوة في توجيه الناس إلى الأهم من أمور حياتهم، وكان يجيب السائل بمقدار ما يرى أنه ينفعه، وقد يحيد عن جوابه المباشر إلى جواب آخر يرى أنه يصلح للسائل، فمن ذلك:

- ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس رضي اللّه عنه: أن أعرابيا سأل رسول اللّه ﷺ فقال: متى الساعة يا رسول اللّه ؟ فقال له: ماذا أعددت لها؟ قال: حبّ اللّه ورسوله. قال: «أنت مع من أحببت»[٣].

فليس المهم معرفة وقت قيام الساعة الذي استأثر اللّه بعلمه، إنما المهم الإعداد والتزود بالعمل الصالح التزاما بقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه ولتنظر نفس ما قدمت لغد، واتقوا اللّه إن اللّه خبير بما تعملون) الحشر/١٨.

١٠- سلامة اللغة وحسن الأسلوب:

يحتاج المحاور إلى أن يكون لسانه مقوّما وكلامه بليغا من غير تقعُّر

١- الآلوسي، روح المعاني، ج٣/٧١.

٢- المرجع السابق: ج٣/٧١.

٣- صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب ٦، وكتاب الأدب، باب٩٥، أحمد في المسند ج٥/١٥٦.

أو تشدق، إنما يسلك الأسلوب السهل بعيدا عن الكلام المبتذل، وهذا أقرب إلى أن يفهمه الناس وينجذبوا إلى حديثه، والحوار -كما هو منهج القرآن والسنة- إنما ينبغي أن يخاطب العقل، وهذا يلزم المحاور أن يصوغ عباراته بأسلوب سهل بليغ، وكثيرا ما يكون عيُّ اللسان سببا في سوء الفهم .

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الأنبياء كانوا على درجة عالية من البلاغة وحسن الأسلوب، وما ذلك إلا ليعينهم حسن البيان على دعوتهم وحوارهم لأقوامهم، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ (إبراهيم:٤).

وهذا موسى عليهالسلام طلب من الله تعالى أن يعينه على إفهام الناس من جهة البيان: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴾ (طه: ٢٥-٢٨).

وقد حكى القرآن الكريم عن موسى- عليه السلام- في موضع آخر ما يشير صراحة إلى موضوع اللسان والفصاحة وأهمية البيان، فقال الله تعالى: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (القصص:٣٤ - ٣٥).

وقد بين النبي ﷺ أن البيان له تأثير على السامع، فقد أخرج البخاري عن ابن عمر قال: جاء رجلان من المشرق فخطبا، فقال النبي ﷺ: (إن من البيان لسحرا)[١].

واختُلف في تعريف البلاغة، فقيل: أن يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه، وقيل: إيصال المعنى إلى الغير بأحسن لفظ، وقيل: الإيجاز مع الإفهام، والتصرف من غير إضمار، وقيل: قليل لا يُبهم وكثير لا يُسأم، وقيل: إجمال اللفظ واتساع المعنى، وقيل: حسن الإيجاز مع إصابة المعنى، وقيل: الإيجاز

١- أخرجه البخاري، في كتاب النكاح، باب الخطبة، ج٦/١٣٧ .

من غير عجز والإطناب من غير خطأ، وقيل: النطق في موضعه والسكوت في موضعه، وهذا كله عن المتقدمين، وعرَّف أهل المعاني والبيان البلاغة بأنها: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع الفصاحة، وهي خلوه من التعقيد، وقالوا: المراد بالمطابقة ما يحتاج إليه المتكلم بحسب تفاوت المقامات..»[١].

ويُفهم مما سبق أهمية أن يكون الكلام أثناء الحوار فيه إيجاز من غير إخلال بالمقصود بعيدا عن التطويل الممل.

- **ومن آداب الحوار**

إن الحكمة الواردة في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ ...﴾ (النحل:١٢٥) تقتضي مراعاة كل ما من شأنه إعلاء قيمة الحوار، وسلوك كل طريق لإنجاحه، ومن ذلك:

١-الاحتراز عن الألفاظ المحتملة، وذلك لأن البحث العلمي ينبغي أن يكون بكلام واضح بعيدا عن الرموز والكلام الذي يحتمل أكثر من وجه، حتى يصل المعنى المقصود إلى الطرف الآخر بالسرعة الممكنة.

٢- الاحتراز عن الألفاظ الغريبة، لأن التقعر في الألفاظ يتنافى مع طبيعة الحوار الهادف.

٣-الاحتراز ع نالضحك ورفع الصوت والسفاهة، حتى لو بدر ذلك من الطرف الآخر، لأن حسن السمت والذوق الرفيع له أثره البالغ في كسب ود الآخرين وحسن استماعهم[٢].

٤- **ختم الحوار بهدوء مهما كانت النتائج:**

وليكن الختام مسكاً من خلال التزام الجميع بما تعاهدوا عليه في بداية الحوار من الإنصاف والرجوع للحق، وهذا على افتراض أن الحوار سار

١- ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، المطبعة البهية، مصر، ط١، ج١٣/١٥٠-١٥١.

٢- محمد المرعشي، الرسالة الولدية في آداب البحث والمناظرة، حاشية الكتاب، ط١، مطبعة السعادةمصر، ص: ٥٥.

بجدية ووفق أسس الحوار المعتد بها، ، فإذا رفض المحاور الحجج العقلية كأن لم يقتنع بها أو تمادى في تعصبه وأنف من الخضوع للحق؛ فإنه بذلك يمارس حقاً أصيلاً كَفِلَه له رب العزة، وسيكون مسؤولاً عن ذلك أمام الله تعالى.

وفي هذه الحالة ينتهي الحوار بهدوء كما بدأ دون حاجة إلى التوتر والانفعال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ (هود: ٣٥)، ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (القصص: ٥٥).

ولا حاجة في أن يُتَابَعَ الخصم على ما بدر منه من إساءات في الحوار، وليكن العفو والصبر أساساً وخلقاً في التعامل مع الآخرين: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩).



الفصل الخامس

عوائق الحوار

إنّ خلو الحوار من أحد مقومات نجاحه هو عائق رئيس، فمثلاً ذكرنا أن الموضوعية والإنصاف أحد أسس الحوار الناجح، فلو خلا حوار ما من هذا الأساس لفقد الغاية المقصودة منه وأصبح مجرد جدل عقيم، لأن كلا الطرفين يهدف إلى إفحام الآخر ابتداء وليست النية معقودة على الوصول إلى الحق، ومتى علم العاقل أن الطرف الآخر يريد الجدال والخصام فقط، فإنه ينبغي عليه أن لا يضيع وقته وجهده.

ونذكر في هذا المبحث بعض العوائق التي تحول دون تحقق الحوار المنهجي الهادئ الخالي مما يكدره أو يعيق جني ثماره:

١- التطرف وأثره السيئ على ثقافة الحوار:

التطرف معناه مجاوزة الوسط في كل شيء... في الاعتقاد والسلوك والآراء، والتطرف مرادف لكلمة الغلو وهو التشدد في الفهم والإفراط، وقد يكون بالتفريط والإهمال فيولد الانحلال والتسيب، وكلا الطرفين مذموم شرعا وعقلا ، وقد اشتغل كثير من الإعلاميين بنوع واحد من التطرف وهو التشدد والغلو، وتناسوا النوع الثاني، وهو فهم قاصر ومغلوط لمعنى التطرف لا يعبر عن حقيقة المشكلة التي يعاني منها الواقع[١]، لأن الأمة تعاني من النوعين من التطرف باعتبارهما من معوقات الحوار الحقيقي، وهما يحملان أصحابهما على احتكار الحقيقة وترك الإنصاف والموضوعية.

ومن اللافت للانتباه أن الإعلام يتوسع كثيرا في إطلاق كلمة التطرف بدون ضابط، وقد أحدث هذا لبساً وخلطاً هائلاً في الاستعمال والتداول ، مما اوقع في خلد الكثيرين ممن يجهلون حقيقة الدين أن كل ملتزم بدينه متطرف، وهذا يؤدي إلى إيجاد حاجز كبير بين الناس مما يمنع من الحوار الصادق بسبب التهمة المسبقة، إنما الواجب تحديد ما هو التطرف والغلو ثم بعد ذلك يُسقَط على الناس ما يناسبهم.

١- د. محمد السيد الجليند، الأصولية والحوار مع الآخر، دار قباء للطباعة، القاهرة، ط١، ص: ٢٠-٢١.

وقد ورد في الحديث الصحيح: (هلك المتنطعون، قالها ثلاثا)[1]، وقال: (إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم في الغلو في الدين)[2] وقال: (لا تشددوا على أنفسكم فيُشدّد عليكم، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار، ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾الحديد: ٢٧[3].

فالتطرف بمعنى الغلو والتنطع هو الذي ينبغي العمل على معالجته من خلال الحوار أيضا، ولا يصح أن نحارب الخطأ بخطأ مثله، لايمنعنا غلوهم من أن نتوسط في التعامل وأن نلين الجانب ونقابل الحجة بالحجة، ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾فصلت: ٣٤.

والحوار هو العلاج الناجع للغلو والتنطع، لأن بالحوار نصل إلى الفهم الصحيح للدين ونصوصه، حيث إن أساس الغلو هو الفهم الخاطئ، ولهذا يتحدث ابن القيم في تقرير المنهج السوي في الفهم والتلقي:بأنّ« يُفهم عن الرسول مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يُحمل كلامه ما لا يحتمل، وألا يُقصّر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان، وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال عن الصواب ما لايعلمه إلا الله، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع...»[4].

إن الحوار ضروري مع من نظن أنه يتطرف في رأيه أو سلوكه، ولا ينبغي معاملته بطريقة متطرفة أيضا فنعالج الخطأ بالخطأ، فتجد هذا المغالي يجهل مراتب الأحكام ويخلط بين الواجب والمندوب، أو بين الحرام والمكروه، ويهتم بالسنة على حساب الفرائض جهلا بالأولويات وما يجب تقديمه،

١-صحيح مسلم، ج٤/ ٢٠٥٥

٢- مسند أحمد ج١/٢١٥

٣-أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الحسد ج٤ /٢٠٩، رقم ٤٩٠٣

٤- الروح، ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥، ج١/٦٣

وكذلك لأنه يستبد برأيه ويتعصب ويتحامق مع المخالف، ويُعجب برأيه، ولايفرق بين من يخطىء عن جهل وبين من يخطىء عن قصد، ويسيء الظن بالآخر، و ذلك كله يحتاج إلى بيان وتوضيح من خلال الحوار العقلاني.

والخطير عند بعض المغالين ميلهم إلى التكفير دون ضوابط، والعمل بلوازم ذلك التكفير، مع أن التاريخ لم يعرف أصولا لفكر التكفير إلا عند الخوارج الذين يكفرون مرتكب الكبيرة كما هو معروف.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم، بمجرد الخطأ المحض، بل كل أحد منهم يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ، وليس كل من يُترك كلامه لخطأ أخطأه يُكفّر، ولا يُفسق، بل ولا يأثم، ومن المعلوم أن المنع من تكفير علماء المسلمين بل دفع التكفير عن علماء المسلمين وإن أخطأوا هو من أحق الأغراض الشرعية..»[1].

وقال في موضع آخر: «وليس لأحد أن يكفر أحدا من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة، وتبين له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة»[2].

وواضح من كلام ابن تيمية أنه يدعو إلى الحوار من أجل إقامة الحجة وإيضاح الحق وإزالة الشبهة، وفي ذلك أبلغ رد على كل من يتنطع ويتسرع في الحكم بتكفير الناس دون أن يبين لهم وجه الحق أو يقيم عليهم حجة شرعية.

٢- الزيغان والتهرب.

وقد يعبر عنه العلماء بكلمة «الحَيْدة»: حيث يحيد الطرف الآخر عن

١- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مسألة حكم المرتد، ج٣٥/١٠٠-١٠٤

وقد نقله الأستاذ الجليند، الأصولية والحوار مع الآخر، مرجع سابق، ص: ٣٦

٢- ابن تيمية، الفتاوى، ١٢/٤٦٦

قبول الحق من خلال التهرب من الإجابة على السؤال أو تغيير الموضوع أو اللجوء إلى تحويل الحوار إلى مسألة شخصية بدل أن يكون حواراً علمياً مبنياً على المنطق وتقديم البراهين والأدلة، وهذه الحيدة تُثبت أن الخصم قدسلّم بحجة محاوره لكنه يأنف من قبول الحق، وهذا مؤشر على المراوغة والزيغان، وهو مما يعيق الحوار عن أن يصل إلى ثماره المرجوة.

وقد سمى القرآن الكريم الحيدة والمراوغة «اللدد»، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ مريم:٩٧.

قال أهل التفسير: اللُدّ جمع الأَلَدّ، وهو الأعوج في المناظرة الذي يزوغ عن الحق كما قال النبي ﷺ من حديث عائشة رضي الله عنها: (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)[١].

قال الآلوسي في تفسير قوله تعالى: (ويُشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام):

«وفي الآية إشارة إلى أن شدة المخاصمة مذمومة... وشدة الخصومة من صفات المنافقين لأنهم يحبون الدنيا فيكثرون الخصام عليها»[٢].

كما أنها تتضمنإشارة إلى المراوغة والكذب والبعد عن الحق، حيث إن علانية المنافق غير سره.

٣-المداهنة:

والمداهنة هي إظهار الرضا بما يصدر من الخصم الظالم مع ظهور بطلان كلامه أو تصرفه، وهي، هنان تعني الكذب والنفاق.

ومن المداهنة أن تُثني على المحاور في وجهه، فإذا انقضت الجلسة أطلقت لسانك في ذمه، فقد قيل لابن عمر رضي الله عنهما: (إنا ندخل على أمرائنا

١ - صحيح البخاري رقم ٢٣٢٥، صحيح مسلم رقم: ٢٦٢٨ج٤/ ٢٠٥٤.

٢ - روح المعاني للألوسي، ج٢/ ٩٥.

فنقول قولا فإذا خرجنا من عندهم قلنا غيره؟ فقال: كنا نعد ذلك نفاقا على عهد رسول الله ﷺ)[1].

والأجلاء من العلماء والدعاة الذين كانوا يُداخلون رجال الحكم فينعقد بينهما التئام أو صداقة إنما كانوا يأخذون بسنة المداراة وليس المداهنة من أجل أن يكون قربهم من أهل الحكم والسلطان سببا في إيصال الخير لهم ونصيحتهم وبيان الحق لهم، ولميكونوا فيما ثبت من سيرتهم يتلطخون برجس المداهنة.

فينبغي على كل عاقل يريد لنفسه دوام التواصل وحسن العشرة واستماع الآخر له أن يتقي المداهنة وكل ما يضر بدينه مما سبيله التلبيس أو الخداع في التواصل والحوار، فيخاطب الناس بأدب وشجاعة دون تملق أو مداهنة ، ولا يكتم قول الحق ما أمكن ذلك.

-الفرق بين المداهنةوالمداراة:

- المداراة أدب رفيع يتحلى به الإنسان العاقل، يُساعده على الاجتماع بالناس والتعارف والتعاون، حيث لا يستطيع الإنسان أن يُكاشف الناس بكل ما يعرض له من حب أو بغض أو غضب أو استهجان، ولو كاشفهم في كل وقت وعلى أي حال لاختل الاجتماع وانقبضت الأنفس، وبذلك تحصل النفرة بما يفقد التواصل والحوار صفاءه، ويحل سوء الظن مكان المصارحة.

- المداراة فيها لين الكلام وتجنب ما يُشعر ببغض أو استنكار، وهذا يمنح الحوار فرصة الاستمرار، ويجعل كل طرف يُحسن الظن بالآخر ويحترمه، باستثناء ما إذا كان الإشعار خيرا من كتمانه.

- المداراة: تقتضي أن تقابله بوجه سهل منبسط غير عبوس، وتعطيه حق التحية وترفق به في الخطاب وإن كان مخالفا في المعتقد أو المذهب:

---

١ - الطيالسي في مسنده١/٢٦٤، والطبراني في المعجم الكبير ج١٢/٤٢٠، والنسائي في الكبرى ج٥/٢٣١ من طرق متعددة.

قال ﷺ : (لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلْق)[1].

- المداراة تؤدي إلى إطفاء نار الخصومة وتقلبها إلى صداقة، وهذا مما يسهل استماع الرأي الآخر والتأمل فيه وتقديره، وقد يقصد المداري إلى علاج جرح الخصومة ومنعه من أن يتسع.

ومن المداراة: أن يُلاقيك مخالف في المعتقد أو المذهب ذو لسان أو قلم عُرف بنهش الأعراض ولمز الأبرياء فتطلق له جبينك وتحييه في حفاوة، فتكسب جانبه ولعلك تحمي نفسك من قذفه وقسوة كلامه[2].

قال ﷺ:(ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم)[3].

وإفشاء السلام معنى واسع يتضمن كل ما فيه بذل التحية وإظهار اللطف بالناس ومداراتهم.

ومن صور المداراة في السيرة النبوية:

ما أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها:(أن رجلا استأذن على النبي ﷺ فلما رآه قال: بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة، فلما جلس تطلّق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ثم تطلّقت في وجهه وانبسطت إليه! فقال رسول الله ﷺ: يا عائشة متى عهدتني فاحشا، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره»[4].

١- أخرجه: مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب استحباب طلاقة الوجه، ج٤/٢٠٢٦، حديث رقم ١٤٤ .

٢- محمد الخضر حسين، مجلة نور الإسلام، ربيع الأول / ١٣٥٠/، ص١٥٠ .

٣- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، ج١/ ٧٤ .

٤-صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشا..ج٧/٨٠.

والفحش في الكلام هو كل ما خرج عن مقداره حتى يُستقبح، والرجل الذي استأذن على النبي ﷺ في الحديث المذكور هو عُيينة بن حصن الفزاري، وكان يُقال له الأحمق المطاع، وكان أعرابياً جافيا، وقد رجا النبي ﷺ بإقباله عليه تألفه ليُسلم قومه لأنه كان رئيسهم، وقد كان النبي الكريم مجبولاً على الكرم وحسن الخُلق فأظهر البشاشة ولم يواجهه بالمكروه لتقتدي به أمته في اتقاء شر أمثاله وفي مداراة من هو على شاكلته ليسلموا من غائلته[1].

قال القرطبي: في الحديث جواز غيبة المعلن بالفسق أو الفحش ونحو ذلك من الجور في الحكم أو الدعاء إلى البدعة مع جواز مداراتهم اتقاء شرهم ما لم يؤد ذلك إلى المداهنة في دين الله تعالى، والفرق بين المداراة والمداهنة أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معا، وهي مباحة وربما استُحبت، والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا، والنبي ﷺ إنما بذل له من دنياه حسن عشرته والرفق في مكالمته ومع ذلك فلم يمدحه بقول، فلم يُناقض قوله فيه فعله، فإن قوله فيه قول حق، وفعله معه حُسن عِشرة[2].

لقد كان نظر النبي ﷺ بعيد المدى لتعليم الناس كيف يملكون أنفسهم فلا يُظهرون أثر ما فيها إلا في مكان أو زمان يليق فيها إظهاره، وإرشادهم إلى أدب من آداب الاجتماع وهو رفق الإنسان بمن يقصد مقابلته أو محاورته ولو كان شره في الناس فاشياً، وهذا لا يعيق عن معالجة مثل هذا الشخص بالموعظة الحسنة إلا أن يكون متكبرا.

إن من مقاصد المداراة رضا الناس وتأليفهم وجذب انتباههم للخطاب والحوار في حدود ما ينبغي أن يكون، وهي لا تتنافى مع الإنصاف في الحكم على الناس بالقسط أو بذل النصيحة في رفق.

وترجع المداراة إلى فطنة الشخص نفسه، فهو الذي يراعي مقدارها وطريقتها، فمداراة الخصم الذي يحارب الحق والفضيلة حد قريب

١- راجع فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ج١٠/٣٧٣، كتاب الأدب، باب ٣٨

٢- المرجع السابق، ج١٠ /٣٧٣

ومسحة من التلطف، فهذا نبي الله موسى عليه السلام أمره الله تعالى أن يذهب إلى فرعون وأن يلين له الكلام: «اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى» – طه/٤٣-

وينبغي أن تكون المداراة لمن يُرجى منه العود إلى الحق والرشد ويُؤنس في فطرته شيئ من الطيب أولى من مداراة الخصم الذي شاب على لؤم الخلق وانحراف الفطرة واستحكمت عداوته.

٤- الهزيمة النفسية أو المادية (ضعف أحد الطرفين):

وهذا عائق رئيس في بدء الحوار أو الوصول إلى نتائج عادلة، ويقابل ذلك التساوي في الرغبة والتكافؤ في حرية عرض الأفكار وإثارتها.

بمعنى أن يكون المتحاوران ينطلقان في الحوار برغبة وحرية دون إكراه أو ضغط أو تهديد ، سواء كان هذا الضغط اجتماعيا أو سياسيا أو بتلبيس التهم أو نحو ذلك، فمثل هذا الحوار مهما كانت نتائجه ليست له قيمة علمية أو دينية أو أخلاقية، لأنه يفتقر لأبسط أسس الحوار الحقيقي وآدابه، ولأن أطراف الحوار هنا لن تكون متكافئة في القدرة والحرية، فبعضها يحاور من موقع القوة والاقتدار والاستكبار، والآخر من موقع الضعف والاضطهاد، فالحوار بين المنتصر والمهزوم مثلا غير متكافئلشعور المهزوم بالضعف والخوف من الآخر.إن الأصل في الحوار البناء أن يكون من خلال الاحتكاك والتبادل الثقافي والرغبة في المعرفة والوصول للحقيقة ليس إلا[1].

٥- السخريةوالتجريح:

إذا كان الحوار يتغيى الوصول إلى الحق ومعرفة الرأي الصواب، فإن الأصل فيه استعمال الألفاظ الطيبة والكلمات اللطيفة، والتركيز على إقناع الآخر بأسلوب عقلاني مفعم بالرفق.ومن تم، فإن استعمال الكلمات النابية

١- محمد التسخيري، قيم الحوار والتعايش، ضمن كتاب كيف نواصل مشروع حوار الحضارات، ط١، ص٦٢

مثل الاستهزاء والسخرية من الطرف الآخر يتنافى مع روح الحوار وآدابه وذوقه الرفيع، ويعيقه عن الوصول إلى أهدافه المرجوة، ثم إن اللجوء إلى السخرية من الآخر دليل على الضعف والمهانة، وهو قبل ذلك مخالف لما أمر الله به من المحافظة على أعراض الناس.قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الحجرات: ١١.

وليعلم كل من يهمه شأن الحوار أن الأدب الرفيع والذوق العالي والكلمات الطيبة الحانية لها أثر كبير في نفس الطرف الآخر ووجدانه، مما يمهد لإقناعه وتأثره بما يدعى إليه، فالنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، فما بالك بمن يستعمل الهمز واللمز والسخرية من الآخر أثناء الحوار؟! إن هذا كله إنما يدعو إلى البغضاء والعصبية والمجادلة بالباطل.

وقد كان الرسول ﷺ عندما ينصح أو يدعو إلى ترك منكر يلمح ولايصرح بفاعل الخطأ مراعاة لنفسيته وحفاظا على توازنه، وكان كثيرا ما يستعمل صيغة «ما بال أقوام يفعلون كذا» ومثاله ما رواه البخاري من حديث عائشةرضي الله عنها قالت: صنع النبي ﷺ شيئا فرخّص فيه فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: (ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية)[1].

وهذا يدل على أهمية عدم تجريح الأشخاص بعينهم، لأن الهدف هو الإصلاح والإقناع.

٦- تكفير الناس بغير حق:

وهو باب كريه ومزلق خطير أسقط الكثيرين في غياهب العماية والتألي على الله تعالى دون حجة واضحة، خاصة أن التكفير يعني إخراج الطرف

١- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، رقم: ٥٧٥٠، ج٥/٢٢٦٣

الآخر من الإسلام والحكم عليه بأنه من أهل النار. لهذا فإن آثار التكفير مزلزلة، ولم تُفلح فرقة من الفرق الغالية اتخذت منهج التكفير، وذلك لأنها تجلب العداوة لنفسها، وتقطع سُبل الحوار، وتجعل كل ذي فطرة سوية ينفر منها. وقد جاء التحذير من ذلك واضحا على لسان المبعوث رحمة للعالمين فقال فيما رواه البخاري:

(أيما رجل قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما)[1].

ومن حديث ثابت بن الضحاك:

(... ومن رمى مؤمنا بكفر فهو كقتله)[2].

ومن حديث أبي هريرة:

(إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق)[3].

وليست وظيفة الداعية أو طالب العلم أن يتفرغ للحكم على الناس ويقضي عليهم، إنما وظيفته دعوة الناس وتوعيتهم وتوجيههم نحو الخير والهدى وسلوك سبيل الإصلاح من خلال الحوار الهادئ العقلاني، مع التأدب معهم وعدم النيل منهم طمعا في جذبهم للإيمان وحظيرة الإسلام وليس تنفيرهم، سيرا على طريقة الحبيب المصطفى ﷺ في الأدب الجم والذوق الرفيع في التعامل مع الناس والتيسير عليهم.

---

١ – صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب من كفَّر أخاه على غير تأويل فهو كما قال، رقم ٥٧٥٣، صحيح مسلم: ج١/ ٧٩ كتاب الإيمان.

٢– صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من كفر أخاه علي غير تأويل فهو كما قال، رقم: ٥٧٥٤.

٣– صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، ج٧/ ١٨٤.



الفصل السادس

وسائل بناء ثقافة الحوار

ثقافة الحوار مطلب ضروري، وبناء هذه الثقافة يحتاج إلى إعداد طويل النفس، وجهود دؤوبة، وتربية سلوكية، وإعلام هادف، ومناهج دراسية تراعي هذا الجانب مضموناً وأسلوباً.

ثم إن الوعي الصحيح بمبادىء الإسلام، ومعرفة فقه الواقع، والنية الصادقة في التواصل والتعايش وتبادل المنفعة من أهم الأمور في بناء ثقافة للحوار البناء.

١- ترسيخ مبدأ التعارف في العلاقات الاجتماعية والدولية في ضوء الإسلام:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ (الحجرات: ١٣).

فقد بيّن الله تعالى في هذه الآية الحكمة من تنوع الناس في أجناسهم ولغاتهم وقبائلهم، وأن ذلك لتحقيق مقصد التعارف: تعارف الأفراد والدول والحضارات، فتبين بذلك أن التعارف من خير الأعمال وأحسنها وأسماها﴿ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾ (الملك:٢)، ومن المعلوم أن مقصد التعارف لا يمكن تحقيقه بدون وسيلة الحوار الهادف المبني على أسس الحق والنوايا الحسنة.

٢-السلام هو الأصل في العلاقات الدولية حسب مبادىء الإسلام:

يكفي لمن أراد معرفة فضل الإسلام وحرصه على نشر السلام والوئام في الأرض أن يتدبر في هذه الآيات : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ (النساء: ٩٤).

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾ (النساء: ٩٠).

وقوله تعالى:﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾الأنفال: ٦١.

ذلك أن الله تعالى خلق الناس لمقصد عبادته وتوحيده، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦)، والدعوة إلى ذلك تحتاج جوّا من الأمن والسلم حتى يتهيأ الناس للحوار وسماع كلمة الحق فيؤمنوا بها عن رضى واقتناع ، وظرف الحرب والعداوة يثير الأحقاد والتربص والعناد والاستكبار ، ومن هنا آثر النبي الكريم- ﷺ- تسهيل أمر صلح الحديبية مع أن شروطه كانت تبدولبعض الصحابة في صالح قريشالتي تمثل جانب الباطل والعدو الذي يصد عن دين الله تعالى [١].

من أجل ذلك سمّى الله تعالى صلح الحديبية فتحاً لما كان له من أثر وخير وبركة وتمكن للإسلام والمسلمين ودخول الناس في دين الله أفواجا ، حيث أمن الناس وتحاوروا وتواصلوا واستمعوا إلى كلمة الحق، وكان ممن أسلم في تلك الفترة بعض كبار قادة المشركين مثل خالد بن الوليد، وعَمرو بن العاص، وعُمير بن وهب، وغيرهم.

قال الزهري- فيما نقله ابن هشام-: «فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضا والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يُكَلّم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر».

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مئة، في قول جابر بن عبد الله ، ثم خرج عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[٢].

١-ابن هشام، السيرة النبوية ، مرجع سابق ، ج٣/٢٤٩.

٢- ابن هشام، السيرة النبوية، مرجع سابق، ج٣/٢٥١.

وقد أدّى ذلك وأمثاله من سيرة المسلمين إلى اعتراف الخصوم بأن الإسلام ينتشر في أجواء السلم.

٣-إعمار الأرض مطلب رباني

أراد الله تعالى إعمار هذه الأرض من خلال جهود هذا الإنسان وما أوتي من نعمة العقل واستواء القامة وتمام الحواس ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ (الانفطار: ٦ – ٨).

وكذا سخّر الله له ما في هذا الكون من مقدرات حتى يستفيد منها ويستعملها، فكان من مقاصد وجود الإنسان تعمير الأرض والاستفادة مما أودعه الله فيها من خيرات ومنافع : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ (هود: ٦١).

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن إعمار الأرض لا يتأتى إلا في حالة شيوع لغة الحوار في جو من الأمن والسلم، أما حالة الحرب والبغضاء فإنها الضرر الأكيد والخراب المحتوم والأذى المتحقق، فكيف يكون إعمار الأرض تحت هدير الدبابات ورجم الصواريخ؟

٤- ترسيخ الفهم الصحيح لمقاصد الجهاد:

– قرر الإسلام أن الجهاد هو لإعلاء كلمة الله وتخليص الإنسانية من ظلم الأنظمة البشرية الطاغية، وإزالة الظلم يعني إرساء قواعد العدل، أي إرساء قواعد السلم والسلام، فالجهاد يمنع الظلم والاستبداد ويرفعه عن بني الإنسان [١]، ولولا دفع الباطل بالجهاد لهُدمت صوامع العباد وفُتن الناس عن دينهم وأكل القوي الضعيف: قال الله تعالى:

١- محمد علي الحسن ، العلاقات الدولية في القرآن والسنة ، مكتبة النهضة الإسلامية ، عمان ، ١٩٨٠ ، ص:٢٦٤.

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج: ٤٠).

وإن من الضرري ترسيخ مفاهيم أن الدعوة إلى الله وتحبيب الدين إلى الناس من أعظم الجهاد، والنصوص الشرعية قررت أن الدعوة إلى الله وهداية الناس وتوعيتهم واللطف بهم ودخولهم في السلم هو الغاية المنشودة، قال تعالى:

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت: ٣٤).

وقال تعالى:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

ودعوة الناس إنما تكون بالبيان والحوار وإقامة الحجة، ثم بعد ذلك يُترك للناس حُرية الاختيار، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ (الإنسان: ٣).

والنص الآتي فيه دلالة واضحة وعبرة ساطعة تبين مقصد الإسلام في انتشاره في الأرض : فقد أخرج الشيخان من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه يتحدث عن غزوة خيبر: إن رسول الله ﷺ قال : لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه، .. فأعطاه الراية – أي لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فقال علي : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟

فقال: (انفُذ على رِسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير من أن يكون لك حُمّر النَعَم)[1].

إن هداية الناس هي المقصد وهي الأساس، وهي الغاية من ابتعاث الرسل

١-البخاري، فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب، ج٤/٢٠٧، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رقم ٢٩

وإنزال الكتب، والعلماء ورثة الأنبياء، فهذه وظيفة الدعاة وأبناء الإسلام ممن يُدركون أنهم حملة شعلة الهداية للبشرية، وهذا يقتضي التعامل مع البشر على هذا الأساس من الرحمة وحب الخير لهم، وإنقاذهم من الضلال إلى نور الإسلام.

٥-التسامح مبدأ أصيل:

من يقرأ في سيرة الرسول الكريم ﷺ يجد الرحمة والرفق، فقد كان يُؤذى فيصبر ويحتسب، ويُنال منه فيغفر ويعفو، ويُهان فيصفح، وكان يقول: (**اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**)[١].

وحين فتح الله عليه مكة وقدر على أهلها وهم الذين صدوه وعادوه وأخرجوه لم يكن منه إلا أن خطب فيهم فقال:(يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، ثم قال : يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء)[٢].

٦- الأصل في علاقة المسلم بغيره هو البر والمعروف:

لقد بين القرآن الكريم بصورة واضحة أن الأصل في علاقة المسلم بغيره هو البر والمعروف وحسن الخلق، ما لم يكن هناك سبب واضح يقتضي العداوة والحرب والدفاع عن النفس مثل أن يغزو العدو بلاد المسلمين أو أن يخرج بعض المسلمين ظلما من أرضهم وديارهم... قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الممتحنة: ٨).

١- الأحاديث المختارة، الضياء المقدسي، ج٤/٧٦

٢- سيرة ابن هشام ، مرجع سابق ، ج٤/٤٣

قال القرطبي: هذه الآية رُخصة من الله تعالى في صلة الذين لم يُعادوا المؤمنين ولم يُقاتلوهم .. قال أكثر أهل التأويل هي محكمة، واحتجوا بأن أسماء بنت أبي بكر سألت النبي ﷺ هل تصل أمها؟ حين قدمت عليها مشركة، قال: نعم. أخرجه البخاري ومسلم، وقيل إن الآية فيها نزلت.

وقال في قوله: (وتُقسطوا إليهم):«أي تعطوهم قِسطا من أموالكم على وجه الصلة، وليس يريد به العدل، فإن العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل، قاله ابن العربي..وقد بينا أن إسماعيل بن إسحق القاضي دخل عليه ذمي فأكرمه، فأخذ عليه الحاضرون في ذلك، فتلا هذه الآية عليهم»[1].

٧- الاهتمام بالعلاقات السياسية (الدبلوماسية) بين الدولة الإسلامية والدول المسالمة:

من وظائف الدولة المسلمة العمل على التعايش السلمي ودوام التبادل الحضاري ونشر الإسلام في العالم بالوسائل الدعوية والحوارية ، لذلك فإن إنشاء السفارات في الدول المسالمة أمر يقتضيه واجب مبدأ التعارف والتواصل والدعوة ، وهو امتثال لما أراده الله تعالى من تعارف البشر وتعاملهم بالحسنى وتعاونهم على الخير والمصالح المشتركة .

وقد أرسل الرسول ﷺ بكتبه إلى الملوك والرؤساء يدعوهم فيها إلى الإسلامفهذه الرسل التي كان يرسلها الرسول ﷺ إلى البلاد المجاورة دليل على جواز فتح الدولة الإسلامية سفارات في بلاد غير المسلمين، وذلك لتسهيل أمر التعارف والتواصل، و نشر مبادىء الخير والهداية، وفتح قنوات الحوار ليسمع كل طرف ما عند الآخر فيتقارب الناس وتحصل الثقة بدل سوء الظن والتربص والخوف من الآخر دون مسوِّغ، و تتحق المنافع والمصالح المشتركة في التجارة وغيرها، وفي مقابل ذلك يُسمح للدول المسالمة وغير الطامعة في بلاد المسلمين بأن تفتح سفارات في البلاد الإسلامية ، مع وضع

١- القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ط بدون ، ج١٨/٥٩.

الشروط الملائمة لذلك .

ودليل ذلك ما روى أبو رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: (**إني لا أخيس بالعهد، ولا أحبس البُرُد**) [1]، وما روى عبد الله بن مسعود قال: «جاء ابن النواحة وأبن أفاك رسولا مسيلمة إلى النبي ﷺ فقال لهما : أتشهدان أني رسول الله ؟

قالا : نشهد أن مسيلمة رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: (**آمنت بالله ورسوله، أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما**)، قال ابن مسعود: فمضت السنة أن الرسل لا تقتل»[2].

فسفراء البلاد غير المسلمة يُعطون حصانة وأمان ليتمكنوا من أداء مهماتهم المتعارف عليها ضمن شروط البلاد المسلمة، وهذا ما يُستفاد من الحديثين السابقين، وهو حق وشرط في تحقيق المصالح المشتركة والعمل بواجب البر والإقساط المأمور به في آية الممتحنة السابق ذكرها.

٨- الوفاء بالعهد لغير المسلمين :

رسّخ الإسلام في نفوس أتباعه وجوب الوفاء بالعهود وعدم الغدر، وجعل ذلك من الإيمان ومكارم الأخلاق، لأن التواصل بين الناس ودوام الثقة المتبادلة تقتضي الالتزام بالمواثيق والمعاهدات ، وما تعارفوا عليه من محاسن العادات وجميل التصرفات ، وهذا يؤدي إلى حسن العشرة بين الناس ودوام التواصل والتعايش السلمي، ويفتح الباب واسعا للتحاور والتباحث بالتي هي أحسن، مما يقرب بين الناس ويعمل على محو آثار

١- سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الإمام يُستَنُّ به في العهود ، ج٣/ ١٨٩رقم:٢٧٥٨، صحيح ابن حبان: رقم:٤٨٧٧، وقد صححه الشيخ ناصر في السلسلة ٣١٥/٢

٢-سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب في الرسل ، ج٣/ ١٩٠، رقم٢٧٦١ والحاكم في المستدرك ١٥٥/٢ وقال: على شرط مسلم، والبيهقي، السنن الكبرى، باب أن لا يُقتل الرسل، ج٩/٢١١، ومسند أحمد ، ج٤٨٧/٣ ، وهو حديث صحيح، وكلام ابن مسعود في مسند أحمد.

الضغائن والأحقاد والعصبيات . يكفي في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء/٣٤)، فكل ما يلتزم به الإنسان ويقطعه على نفسه من عهد فهو مطالب به ومسؤول عنه ومحاسب عليه، والعاقل يحرص كل الحرص على أن لا يُخدش عِرضه باتهامه بنقض العهود والكذب فتسقط الثقة به.

كمابين القرآن أن مراعاة العقود والعهود والوفاء بها منمكارم الأخلاق، وهو موصل إلى الجنة ، يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾المؤمنون: ٨ - ١١.

ويقول سبحانه: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ النحل: ٩١.

ويقول عز و جل : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ الفتح: ١٠ ويقول سبحانه: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ﴾ البقرة: ١٧٧.

وهذه نصوص واضحة وصريحة في بيان أن الوفاء بالعهود من الإيمان ومن مكارم الأخلاق ، وأنه دليل الصدق والمروءة والاقتدار .

وأما الأحاديث الصحيحة التي تُرشد إلى وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق، فمنها:الحديث السابق الذكر:(**إني لا أخيس بالعهد، ولا أحبس البُرُد**)[1]، أي الرسل.

١-سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الإمام يُستنُّ به في العهود ، ج٣/١٨٩، رقم ٢٧٥٨، مسند أحمد، ج٦/٨ .

قال الخطابي: معناه: لا أنقض العهد ولا أفسده من قولك: «خاس الشيء في الوعاء» : إذا فسد.

وفيه من الفقه أن العقد يُرعى مع الكافر كما يُرعى مع المسلم ، وإن الكافر إذا عقد لك عقد أمان فقد وجب عليك أن تؤمنه، وأن لا تغتاله في دم ولا مال ولا منفعة.

وقوله: «لا أحبس البُرُد»: فقد يُشبه أن يكون المعنى في ذلك أن الرسالة تقتضي جوابا، والجواب لا يصل إلى المرسل إلا على لسان الرسول بعد انصرافه ، فصار كأنه عقد له للعهد مدة مجيئه ورجوعه [١].

وقد ذكر أبو عبيد أن معاوية صالح ملك الروم على الكف عن ثغور الشام بمال دفعه إليه قيل: كان مائة ألف دينار وأخذ من الروم رهنا فغدرت الروم ونقضت الصلح، فلم ير معاوية قتل الرهائن وأطلقهم، وقال : «وفاء بغدر خير من غدر بغدر».

قال: وهو مذهب الأوزاعي وأهل الشام ألا تقتل الرهائن وإن غدر العدو[٢].

وقال الإمامان أبو يوسف ومحمد[٣]: ولا يصح أن يغدروا برسل العدو حتى لو قتل الكفار رهائن المسلمين عندهم، فلا نقتل رسلهم .

وفي الحديث الصحيح: (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، يُرفع لكل غادر لواء، فقيل هذه غدرة فلان بن فلان)[٤].

وفي الحديث الصحيح أيضا: (أغزوا ولا تغُلُّوا ولا تغدِروا ولا تُمثِّلوا

١- الخطابي ، معالم السنن ، بهامش سنن أبي داود ، ج٣/١٨٩، حديث رقم ٢٧٥٨ .

٢- السهيلي ، الروض الأنف، ج١/٣٣٣.

٣- سيد سابق ، فقه السنة ، ج١١/٢١٠، وانظر : العلاقات الدولية ، مرجع سابق ، ص:٢٩٣.

٤-صحيح البخاري ، كتاب الحيل، باب٩، صحيح مسلم ، كتاب الجهاد ، باب تحريم الغدر، رقم ٨-١٠ واللفظ له .

ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاثة خصال فأيتهنّ ما أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم ...)[1].

وقد ردّ النبي الكريم ﷺ أبا جندل إلى المشركين التزاما منه بشروط العقد بينه وبين قريش في صلح الحُديبية ، وقال له :(يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن اللّه جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد اللّه، **وإنا لا نغدر بهم .**»[2] .

وكذا فعل النبي الكريم مع أبي بصير بعد انتهاء الصلح، وقال له: «ولا يصلح في ديننا غدر، وإن اللّه جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا»[3].

فنصوص الإسلام في ذلك واضحة وصريحة، وهي منار ومعلم واضح لكل ذي بصيرة يهدف إلى تحقيق مصلحة الإسلام والمسلمين، ومصلحة البشرية ونشر الرحمة والهداية في ربوع الأرض .

٩ - التواصل الثقافي بين المسلمين وبين الشعوب الأخرى المسالمة :

من المعلوم أن الثقافة هي ما تمتاز به كل أمة من عقيدة ومشاعر وسلوكيات ونظرة للحياة، وكل شعب في هذه البسيطة له عقيدته وسلوكياته ونظرته للحياة، فالمسلمون لهم ثقافتهم المستمدة من الكتاب والسنة، والشعوب الشيوعية تحمل الثقافة الشيوعية ، والشعب الفرنسي له ثقافته والشعب الياباني له ثقافته وكذا الشعب الهندي وبقية شعوب الأرض، لكن من المعلوم أيضا لدى العلماء أن العلوم الطبيعية والتكنولوجية علوم

١- صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ٣ ، ج٣/١٣٥٧.

٢-ابن هشام ، السيرة النبوية ، مرجع سابق ، ج٣/٢٤٨.

٣- المرجع السابق، ج٣/٢٥١.

ثابتة لا تتغير بتغير الشعوب، لأنها نتيجة البحث فيما أودعه الله تعالى في هذا الكون من أسرار ومنافع لمصلحة الإنسان .

وقد كان المسلمون حريصين على التفريق بين العلوم التي هي نتيجة البحث ونتاج الفكر والتجربة، وبين العلوم النقلية والسلوكية التي تعبر عن ثقافة الشعوب، فالعلوم العقلية والطبيعية مشتركة بين الأمم والعلوم النقلية تختص بكل أمة فيما تنقله عن أديانها ولغاتها وأعرافها .

لهذا فإن واجب المسلمين اليوم، مثلما كان واجبهم بالأمس، هو أخذ العلم النافع من أي مصدر كان وبكل الوسائل المتاحة من أجل الاستفادة مما توصلت إليه البشرية في العلوم الطبيعية القائمة على التجربة والاختراع والبحث العلمي، وذلك من أجل السير قدما في ركب الحضارة ومواكبة التطور والتقدم العلمي وما يؤدي إليه من تقنية ومنافع مادية تيسر على الناس سبل عيشهم ، دون أن يكون ذلك على حساب كرامتهم أو التخلي عن ثوابتهم .

وإن من واجب الدولة المسلمة تثقيف الأجيال ثقافة إسلامية من أجل تحصين العقول والنفوس، مما يدفع بالأجيال إلى التوازن والوسطية في النظرة إلى الأمور، ذلك أن من مبادىء الثقافة الإسلامية أن هذا الدين هو دين الوسطية ، وأن الإسلام جاء لرفع الحرج عن الناس وتيسير أمورهم دون عنت أو مشقة بعيدا عن الغلو في النظرة إلى الأمور، مما يدفع بالأجيال إلى محاولة الاستفادة مما عند الآخر دون تبعية مطلقة ودون إقصاء مطلق.

ومعلوم أن المسلمين قد بسطوا سلطان الإسلام في بقاع الأرض في بلاد فارس وبلاد الشام وإفريقيا وغيرها....، بلاد مختلفة اللغات والثقافات والعادات، ومع ذلك فقد رحبوا بالفاتحين، وانبهروا عندما وجدوا أنهم لم يكرهوهم على الدين وأقروهم على ما هم عليه، إلا أنهم تأثروا بسماحة الدين ويسره وحسن عشرة أهله ولطف معاملتهم، فدخل أهل البلاد

في دين الله أفواجا، لهذا تكونت في البلاد المفتوحة ثقافة إسلامية وانصهرت العقليات والأعراف والسلوكيات بثقافة جديدة آمنوا بها واندمجتالشعوب طواعية في بوتقة الإسلام، وبقي من آثر البقاء على دينه مصونا محميا يمارس شعائره وسلوكياته ضمن سلطان المسلمين وذمتهم .

وعلينا أن نفرق بين التأثر والانتفاع ، فالتأثر أن تذوب في ثقافة غيرك، أما الانتفاع فهو أن تأخذ الصالح من كل ثقافة مع الحفاظ على ثوابتك التي تعتز بها وترسم بها شخصيتك وتحافظ بها على كرامتك وتميزك بين الشعوب .

ومن المعلوم تاريخيا عند أهل العلم والمطلعين أن الحضارة الإسلامية قد احتكت منذ فجر تاريخها بحضارات مختلفة بعضها يغلب عليه المادة كالحضارة اليونانية والرومانية والمصرية القديمة، وبعضها يغلب عليه الجانب الروحي كالفارسية والهندية، فأخذت الحضارة الإسلامية من كل هذه الحضارات ما رأته صالحا استنادا إلى مبدأ «الحكمة ضالة المؤمن»، ثم أثّرت هي في غيرها من الحضارات.

ولا ننسى أن الفلسفة الإسلامية كانت أحد الروافد التي ظهر خلالها عامل التأثر بالحضارات المختلفة، هندية وفارسية ويونانية، وكانت هذه الفلسفة محكومة في حوارها مع الفلسفات الأخرى بمجموعة من الضوابط العامة التي شكلت معالم هذا المنهج في الأخذ عن الآخر، ماذا تأخذ وكيف ولماذا ؟ وهل يقتضي الأخذ عن الآخر بالضرورة محو الشخصية الإسلامية والذوبان في الآخر، كما قال النبي ﷺ: (حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)[1]، إن الأخذ عن الآخر ينبغي أن يرتكز إلى أسس تؤدي إلى المحافظة على الخصوصية وتنميةالهوية الذاتية.

١-أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي لتتبعن سنن من كان قبلكم، رقم: ٦٨٨٩، وأخرجه مسلم في العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى رقم ٢٦٦٩.

والحوار الذي امتد عبر قرون طويلة بين الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات كان يتميز بالندية في الأخذ والعطاء ، ومن المعلوم أن الحضارة الإسلامية في تلك الفترة كانت هي الأقوى، وهي المنتصرة، لكنها لم تسمح في حوارها مع الغير أن تكون لغتها فوقية استعلائية بحيث تُشعر الآخر بالدونية كما هو حاصل في العديد من الدوائر بالحضارة الغربية الآن، ولقد تجلت روح الحضارة الإسلامية في أمرين مهمين يتصل كل منهما بالحوار مع الآخر مع منهجه وأهدافه ومقاصده.

الأمر الأول : الروح الإسلامية العامة التي تبناها الفكر الإسلامي ودعا إليها في فلسفته للعلوم العملية، التي نقلها العرب عن الغير ومجمل ذلك هو الربط الدقيق بين الأسباب والمسببات، فالأسباب الطبيعية فاعلة وقد منحها اللّه قوة التأثير وثبات العلاقة واطرادها ليستقر نظام العالم وتكون له صفة الثبات، ولم ير المسلمون تناقضا عقليا بين الإيمان بفعل الأسباب والإيمان بأن مصدر هذه القوة هو الله تعالى ، وليست الأسباب بذاتها، وهو ما جعل المسلمون يبدعون ويبحثون ويسعون في الرقي دون أن يتأثر إيمانهم.

الأمر الثاني: هو حسن توظيف المسلمين للعلم ونتائجه والإفادة من معطياته وتسخيرها لخدمة الإنسان وتأمين حاضره ومستقبله، ذلك أن استخلاف الإنسان في هذا الكون يرتبط به مباشرة حسن تسخير الكون واكتشاف قوانينه والعمل على عمارته لخدمة الإنسان[١]، كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (الجاثية/١٣).

ومن يتأمل في الأمرين السابقين يدرك مدى الفرق بين الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة، لكن لا سبيل لنا سوى الحوار لننقل للغير تلك الروح الإسلامية في النظر إلى الكون والحياة .

١- محمد السيد الجليند ، الأصولية والحوار مع الآخر ، مرجع سابق ، ص:٩١-٩٢

١٠- نظرة المسلمين إلى الهيئات الدولية وأهمية حسن العلاقة وفتح قنوات الحوار والتفاهم:

الأصل أن ينظر المسلمون إلى قواعد القانون الدولي على أنها قواعد وأسس أخلاقيةوأعراف عالمية قد يترتب على مخالفتهااشمئزاز المجتمع العالمي، خاصة في هذا العصر الذي يقترب فيه الناس في هذا العالم إلى أن يكونوا مجتمعا واحدا، ومن المفيد أن نتعامل مع الهيئات الدولية وما يسيطر عليها من قوانين ومواثيق على أنها أعراف دولية، فالعرف الذي تتفاهم عليه المجموعات البشرية وليس فيه ما يناقض قواعد الشريعة ينبغي مراعاته والتواصل مع الآخرين في ضوئه، وقد أبان الله لنا في كتابه أهمية اتباع العُرف ومراعاته، قال الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩) وقال في وصف نبيه الكريم: ﴿ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وهناك أعراف عامة متعارف عليها منذ تاريخ البشرية مثل حصانة الرسل–السفراء- فهذا معروف حتى قبل الإسلام ولما جاء الإسلام أقره، والإسلام لا يقر من الأعراف إلا ما كان فيه خير ومصلحة للبشرية ، سواء كانت أعرافا عامة في المجتمعات أو أعرافا تخص المجتمع العربي، لأن الغاية المنشودة هي سعادة الإنسان وتيسير أموره، ولهذا قال بعض العلماء: «حيثما وجدت المصلحة فثمّ شرع الله» والإسلام إنما جاء لتحقيق المصالح ودرء المفاسد.

ولهذا فإن انخراط المسلمين في المؤسسات الدولية واشتراكهم في لجانهاأمر تحتمه أخلاقيات التواصل وضرورة التعاون مع سائر المجتمعات البشرية، لما يترتب على ذلك من فوائد ومصالح جمة، منها :

١- تحمل المسؤولية مع المجموعات البشرية في العمل نحو فض النزاعات العالمية وإشاعة السلم والأمن العالمي، ودرء الأخطار التي تتعرض لها كثير

من الشعوب بسبب تسلط الناس بعضهم على بعض، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الواجب في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥١).

إن من حق الإنسان ، أينما كان، أن يعيش بأمن وسلام، وأن يمارس معتقده بكل حرية وأمن، وإلا لتسلط الناس على بعضهم بدعوى التميز واحتكار الحقيقة ، فلم يبق سوى الحوار والتواصل والعمل المشترك وتفعيل ذلك من خلال المؤسسات العالمية.

٢- العمل على تطوير القوانين والأنظمة العالمية وتعزيز فعاليتها الحقوقية والأخلاقية، وتغيير مختلف القوانين الجائرة، خاصة تلك التي رسختها الدول الكبرىبعد انتصاراتها في الحروب العالمية السابقة لتبقى لها السيطرة والنفوذ والمكاسب. وإن من واجب المسلمين العمل مع غيرهم نحو إصلاح الأخطاء والممارسات التي لا تتسم بالعدالة في تصرفات المنظمات الدولية، والعمل على إيجاد وسائل ناجعة لمعالجة المشاكل الدولية بمعيار واحد خال من العصبية أو التسلط أو التفرقة، وإن مد جسور التعاون مع الدول الكبرى وتواصل الحوار يُعد من أفضل الطرق لتحقيق ذلك، إضافة إلى واجب الظهور بمظهر الأمة الواحدة في اقتصادها وسياستها و مقومات القوة التي تجعل الآخر ينظر إليها بعين الاحترام والتقدير.

٣- الاستفادة من الحضور الفعّال في المنظمات الدولية من أجل بيان الصورة الصحيحة للإسلام وشرح قواعده وأصوله وبيان نظرته الشاملة للحياة وتقديره للسلم والأمن والتعاون بين الشعوب، وتحريمه وإدانته لكل أشكال الإرهاب من قتل المدنيين حتى في الحروب، وأن هذه المقاصد ليست اجتهادية في ديننا بل هي من صميم العقيدة وأسس الشريعة :

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات: ١٣).

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ (البقرة: ٢٠٨).

- ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: ٦١).

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢)، والنصوص حول ذلك أكثر من أن تُحصى، وفريضة الوقت توجب على علماء الإسلام توضيحهاوبيانها للعالم، خاصة في هذا العصر الذي توجه فيه للإسلام تهمة الإرهاب بسبب تصرفات بعض المنتسبين إليه ممن اندفعوا نحو تصرفات سلبية لم يجنِ منها المسلمون سوى النكبات والمآسي وتشويه صورة الإسلام والمسلمين.



الفصل السابع

ثمرات الحوار

إن انقياد أصحاب العقول السليمة من الناسلنتائج الحوار العقلاني الهادىء المبني على أسس سليمةووسائل حضارية يترتب عليه من الآثار الحميدة فوائد جمة ونتائج محمودة يبتغيها كل العقلاء، مما لا نجده نتيجة فرض الرأي أو التسلط أو القوة.من ذلك:

١ -إن الانقياد المترتب على الحجة والبيان يستمر ويورث للأجيال اللاحقة، وذلك لأن الانقياد في حقيقته ليس انقيادا لشخص وإنما للعقيدة أو المذهب الذي اقتنع به هذا الشخص .

٢-إن الهزيمة نتيجة القوة تورث الأحقاد والعداوة والانقياد الظاهري، أما صاحب البيان والحجة المقنعة فإنه حين يبرز في حواره ويؤثر في منطقه يكون قد نال حبّ الآخرين فيتحولون إلى أصدقاء ومحبين بل مدافعين عن الفكرة التي آمنوا بها.

٣-إن صاحب العقيدة الذي آمن طوعا نتيجة الحوار والإقناع يغير من سلوكه عن رضا بما يتلاءم مع معتقده الجديد دون إكراه ودون محاولة للتملص من الواجبات، فالحوار والإقناع هو الوسيلة الصحيحة لتغيير السلوك الاجتماعي وليس القوة والجبروت والإلزام [1].

٤-إن الحوار يتيح – إذا صدقت النوايا – التعرف على جميع الاحتمالات التي يمكن أن يكون الدليل رمى إليها بوجه من وجوه الأدلة.

٥-إن الاختلاف رياضة للأذهان وتلاقح للآراء وفتح لمجالات التفكير للوصول إلى سائر الافتراضات التي تستطيع العقول المختلفة الوصول إليها.

٦-إنتعدد الحلول أمام صاحب كل واقعة يشكل فرصة ليهتدي إلى الحل المناسب للوضع الذي هو فيه، وهذا يناسب مع يسر هذا الدين الذي يتعامل

---

١ - د. عبد الحليم حفني، أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣ ص: ٢٠

مع الناس من واقع حياتهم. وكل ذلك إنما يكون إذا بقي الحوار ضمن الحدود والآداب التي يجب الحرص عليها ومراعاتها، وبخلاف ذلك يتحول إلى جدال مذموم وشقاق ذي عواقب وخيمة [1].

٧- إن الحوار يرسخ استعمال المنطق والحجة، فهو يلازم التعقل وبعد النظر، بعيدا عن ضيق الأفق والتعصب المقيت، واستعمال المنطق والحجة هو الطريق الصحيح لإقناع الآخرين ومعرفة ما عندهم من حجج وبراهين، وهو وسيلة الاتصال بين الناس تزيد من الثقة المتبادلة والتفاهم المبني على العقلانية .

٨-وهو الوسيلة المفيدة للتوعية والدعوة إلى الله تعالى ونشر العلم النافع، إضافة إلى أنه الطريق المهم لبيان الحق وكشف الشبهات بأسلوب علمي بعيدا عن الخصومة المذمومة والجدال البغيض.

٩- والحوار ينمي الشجاعة الأدبية في نفس الفرد، فهو وسيلة العقلاء وأصحاب المبادىء، لأن أصحاب المبادىء يعلمون أنهم يحملون أفكارا لا يخشون عليها من مواقف الآخرين، كما أنهم يمتلكون الجرأة الكافية للتخلي عن آرائهم فيما إذا تمّ إقناعهم بوجاهة قول الآخر، لهذا فالحوار العقلاني المبني على الحجة والمنطق يدل على طبيعة سليمة من آفات النفس وأمراض المجتمع وعلى نفس حُرّة أبية شجاعة.

١٠- إنه المدخل المهم لإظهار الحق ودحض الباطل بأسلوب علمي هادىء بعيدا عن الانفعال وفرض الآراء على الناس.

١١- وهو الطريق الأمثل لتفهم آراء الآخرين ومعرفة نقاط الاتفاق ونقاط الاختلاف، ومن ثم يُعذر كل طرف غيره إذا خلصت النيات.

١٢ - وأسلوب الحوار يُستعمل لنقل معلومة أو إثبات قضية من غير طريق السرد المباشر، وإنما من خلال السؤال والجواب أو تبادل الأفكار والمعلومات،

١-طه جابر العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط٦، ص:٢٥

مما يعطي السياق الذي تنقل به المعلومة اهتماما وحيوية بعيدا عن السآمة والملل، بل يدفع السامع للاهتمام والتيقظ والانتباه لما يقال وما يجاب به، لهذا نجد أن الأنبياء حاوروا أقوامهم، ونجد أن القرآن الكريم ساق لنا كثيرا من القصص والمواعظ والحكم بطريقة الحوار، ليبلغ للقارىء ما فيها من عبرة ومعاني ومواعظ.

قال السيوطي: «وقد أخرج الله تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة ليفهم العامة من جليها ما يُقنعهم، وتلزمهم الحجة، ويفهم الخواص من أبنائها ما يَربي على ما أدركه فَهْمُ الخطباء»[1].

١٣- نُصرة الحق، فإذا كان الخير والشر حقيقتين في هذه الحياة، والصراع بينهما قائم منذ وجد الإنسان، فلا بد لاستقرار أمور الحياة من دفع الشر ومحاربته حتى لا تستحيل الحياة إلى موت، والحوار من أقوى الأسلحة لنصرة الحق والقضاء على الباطل، وهو الذي أوقف أصحاب الإرادات الإيمانية في وجه الجبابرة ثابتين صامدين، والحوار المبني على العقيدة هو الذي حوّل عابد الوثن وشارب الخمر إلى عابد لله تعالى، وجعله كريما بنفسه قويا بخالقه، طاهر السريرة ثائرا على الرذيلة»[2].

١٤-إن الحوار هو الطريق السهل والمضمون للحجة والإقناع، فالحوار في القرآن والسنة يفيد وعظا أو نصحا أو إجلاء لحقيقة أو تثبيتا لأقدام المؤمنين، أو دحضا لباطل وما شابه ذلك من إجابات على تساؤلات تشغل بال الإنسان العاقل، وكل ذلك بأسلوب يتناسب مع المستوى العقلي للإنسان عموما بعيدا عن الجدل الفلسفي المعقد والتخبط المردي، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ الزمر: ٢٣، وقال: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾ النساء: ٨٧.

١- السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، ج٢/١٣٥

٢-نوفل أبو المجد ، الدعوة إلى الله تعالى ص: ٧٠

وإن سلاح المحاور إنما هو لسانه وما يصدر عنه من منطق مقنع وحجة واضحة، لهذا بيّن الله تعالى أن هذا الدين جاء من خلال البرهان وليس الإكراه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ ﴾النساء: ١٧٤.

وقد طالب الله تعالى من يدعي دعوى دون دليل أن يقدم البرهان:

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ ﴾البقرة: ١١١

وبين أن الذي يشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا برهان:﴿ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤ ﴾النمل: ٦٤.وقد بين أهل اللغة أن البرهان مصدر برَهَ إذا ابيضَّ، وأن معناه: بيان الحجة، وأنه أوكد الأدلة وهو الذي يقتضي الصدق أبدا [١].

ونصوص الكتاب والسنة ترشدنا إلى الطريق القويم في الحوار مع الآخرين وهو أن نستمع للدعوى ثم نطالب بالبرهان وما دام أنه لا برهان مع المخالف فإنه سيرجع إلى نفسه إن كان عاقلا ويعرف أنه على باطل، إذ إن كل شخص قادر على أن يدعي ما يشاء لكن المهم هو أن يبرهن على صحة ما يقول ويعتقد.

ومن هنا تبدو أهمية اللسان والقدرة على البيان والحوار حيث إنه السلاح الحقيقي والمؤثر في مواجهة الناس خاصة من يجادل للتمسك بتقاليده وعاداته التي ورثها وألفها، ولهذا قال تعالى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾إبراهيم: ٤.

١- الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، مرجع سابق، ص:٤٥

١٥-إن التطرف لا يُعالج بمثله، إنما تُكافح الفكرة الضالة بالفكرة الصحيحة، وهذه من أهم ثمرات الحوار، فالتطرف علاجه الحوار البناء، لأن صاحب الفكر الغالي يحتاج للإقناع من أجل الرجوع إلى الحق سواء في منهجه أو تفصيلات أفكاره، ولا يصح أن نحارب الخطأ بخطأ مثله، لا يمنعنا غلوهم أن نتوسط في التعامل وأن نلين الجانب ونقابل الحجة بالحجة، «ادفع بالتي هي أحسن».

وبالحوار نصل إلى الفهم الصحيح للدين ونصوصه، حيث إن أساس الغلو هو الفهم الخاطىء ، ولهذا قال ابن القيم : «ينبغي أن يُفهم عن الرسول مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يُحمل كلامه ما لا يحتمل، وألا يُقصّر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان، وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع»[1].

فقد تجد هذا المغالي يجهل أولويات مراتب الأحكام ويخلط بين الواجب والمندوب، أو بين الحرام والمكروه، ويهتم بالسنة على حساب الفرائض جهلا بالأوليات وما يجب تقديمه.

١٦-يُعد أسلوب الحوار أهم الأساليب وأبرزها في التعليم والتربية، فهو أسلوب محبب إلى النفس يضفي عليها الحيوية ويدفع الملل والشرود عنها ويشد انتباه السامع ويزيد الإقبال على المتابعة، ويجعل الذهن أكثر تفتحا وتجاوبا .

وهو أسلوب أخذ به المعاصرون من رواد التربية، يظهر بين أساليب التدريس مستقلا بنفسه أو في ثنايا الأساليب والطرق الأخرى.وعند عودة

١- الروح، لابن القيم ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥، ج١/٦٣.

التربويين إلى السنة النبوية سيجدون أنها رائدة في ترسيخ منهج الحوار في التعليم والتربية، وأنه أسلوب حكيم وبصيرة هادية وطريق مقنع اهتم به المصطفى ﷺ لإيصال الحجة وتشويق السامع، وإقناع المتردد وهداية الضال وإزالة الشبهة .

خاتمة :

خلصت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج لعل أهمها :

١- إن الكتاب والسنة النبوية والسيرة العطرة قد أرشدتنا قولا وعملا إلى كل أسس الحوار وآدابه وأساليبه، فما علينا إلا المزيد من الدراسة لها والتدبر فيها لاستخلاص ما فيه صلاح حياتنا.

٢- الحوار وسيلة على غاية من الأهمية للاتصال والتفاهم مع الآخر.

٣- إنه الطريق الصحيح للوصول للحقيقة عند سلامة النية وصفاء المقصد.

٤- ضرورة استعمال الحوار في التعليم والدعوة إلى الله لما في طريقته من سرعة التأثير وإيصال الفكرة ورسوخها.

٥- الحوار له مرتكزات وأسس وآداب ينبغي مراعاتها في المناظرات العلمية وسائر شؤون حياتنا، وإلا كان جدالا عقيما ومهاترات سقيمة ، ومن أهم هذه الأسس: العقلانية في المخاطبة، والتأكيد على نبذ التقليد الأعمى، والموضوعية والإنصاف بالرجوع للحق عند بيانه، وحسن النية، ووضوح الهدف، والتسلح بالعلم، ومراعاة الرفق ولين الجانب، واحترام الطرف الآخر، ووضوح المرجعية، وحسن الإنصات، واستعمال الكلام الفصيح والعبارات اللطيفة، والبعد عن التحقير وتسفيه الطرف الآخر سواء في شخصه أو رأيه، وأهمية المداراة بعيدا عن المداهنة .

٦- هناك معوقات تحول دون ترسخ الحوار منهجا في حياتنا، أو تجعل الحوار مجرد مجادلات لا تسمن ولا تغني من جوع، منها: الغلو والتطرف في الفكر، ومحاولة احتكار الحقيقة، وما قد ينتج عن ذلك من تضليل الآخر أو تكفيره دون وجه حق، ثم العصبية الفكرية أو المذهبية،

والاعتداد بالنفس، والجهل والتقليد الأعمى، ومنها الفهم الخاطئ للنصوص واجتزائها من سياقاتها.

٧-بينت الدراسة ضرورة تفعيل الحوار مع الآخر المختلف دينا وحضارة على أسس عادلة، بعيدا عن التسلط وفرض الرأي الآخر.

٨- اتضحت الحاجة الماسة للحوار ليكون رفيقا للعالم والمتعلم والداعية وكل صاحب مبدأ، وأن في الكتاب والسنة المعين الصافي والمنهل العذب في معرفة أسس الحوار وآدابه، كيف لا والقرآن هو حبل الله الممدود الذي لم يفرط في شيء، ورسوله محمد ﷺ هو معلم البشرية والرحمة المهداة والسراج المنير، فما أحوج البشرية اليوم إلى تلمس هديه ﷺ في التواصل والتحاور حتى نخرج من أزمة التعصب ونتنحّى عن وحل المهاترات والمخاصمات، ونتخلص من تحكم الهوى والرغبات .

وكل عاقل يُدرك أهمية الحوار، لكن المهم معرفة الهدف من ذلك ، وما هي الأسس التي يقوم عليها الحوار مع المخالف أو الموافق، وما هي ثمرات ذلك ؟ وكلها أسئلة أرجو أن تكون هذه الدراسة قد أجابت عن بعضها في ضوء كتاب الله تعالى وهدي رسول الله ﷺ.

والحمد لله رب العالمين .



سلسلة إصدارات روافد

١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.

د. عبد العزيز برغوث.

٢- عينان مطفأتان وقلب بصير (رواية).

د. عبد الله الطنطاوي.

٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.

د. محمد إقبال عروي.

٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.

د. الطيب برغوث.

٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية).

د. سعاد الناصر (أم سلمى).

٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.

د. مصطفى قطب سانو.

٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.

د. عبد الكريم بوفرة.

٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.

د. إدهام محمد حنش.

٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.

د. محمود النجيري.

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

د. ثـريـة أقصـري

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامة في النقد والإبداع.

د. عمر أحمد بو قرورة

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

د. أبو أمامة نوار بن الشلي

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

د. حلمي محمد القاعود

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

أ. د. سمير عبد الحميد نوح

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

د. أحمد الريسوني

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

د. نجم الدين قادر كريم الزنكي

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

د. حسن الأمراني

د. محمد إقبال عروي

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

الروائي/ عبد الباقي يوسف

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

أ. د. عبد الحميد محمود البعلي

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

الشاعر محمود مفلح

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

د. محمد الحبيب التجكاني

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء.

أ. طلال العامر

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

د. أشرف محمد دوابه

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم.

د. حكمت صالح

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

د. عبد الرحمن العضراوي

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

أ. محيي الدين عطية

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

د. أحمد محمد كنعان

٣٧- القراءات المفسرة ودورها في توجيه معاني الآيات القرآنية.

———————————— د. عبد الهادي دحاني

٣٨- شعر أبي طالب في نصرة النبي ﷺ.

———————————— د. محمد عبد الحميد سالم

٣٩- أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية.

———————————— د. حمدي بخيت عمران

٤٠- رؤية نقدية في أزمة الأموال غير الحقيقية.

———————————— أ.د. موسى العرباني

———————————— د.ناصر يوسف

٤١- مرافىء اليقين (ديوان شعر).

———————————— الشاعر يس الفيل

٤٢- مسائل في علوم القرآن.

———————————— د. عبد الغفور مصطفى جعفر

٤٣- التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين.

———————————— د. مصطفى بن حمزة

٤٤- في مدارج الحكة (ديوان شعر).

———————————— الشاعر وحيد الدهشان

٤٥- أحاديث فضائل سور القرآن: دراسة نقدية حديثية.

د. فاطمة خديد ________________________

٤٦- في ميـــزان الإسـلام.

د. عبد الحليم عويس ________________________

٤٧- النظر المصلحي عند الأصوليين.

د. مصطفى قرطاح ________________________

٤٨- دراسات في الأدب الإسلامي.

د. جابر قميحة ________________________

٤٩- القيمُ الروحيّة في الإسلام.

د. محمّد حلمي عبد الوهّاب ________________________

٥٠- تـلاميـذ النبـوة (ديوان شعر).

الشاعر عبد الرحمن العشماوي ________________________

٥١- أسماء السور ودورها في صناعة النهضة الجامعة.

د. فـؤاد البنـا ________________________

٥٢- الأسرة بين العدل والفضل.

د. فريد شكري ________________________

٥٣- هي القدس... (ديوان شعر).

الشاعرة: نبيلة الخطيب ________________________

٥٤- مسار العمارة وآفاق التجديد.

م. فالح بن حسن المطيري

٥٥- رسالة في الوعظ والإرشاد وطرقهما.

الشيخ محمد عبد العظيم الزُّرْقاني

٥٦- مقاصد الأحكام الفقهية.

د. وصفي عاشور أبو زيد

٥٧- الوسطية في منهج الأدب الإسلامي.

د. وليد إبراهيم القصاب

٥٨- المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم.

د. خديجة إيكر

٥٩- أحاديث الشعر والشعراء.

د. الحسين زروق

٦٠- من أدب الوصايا.

أ. زهير محمود حموي

٦١- سنن التداول ومآلات الحضارة.

د. محمد هيشور

٦٢- نظام العدالة الإسلامية في نموذج الخلافة الراشدة.

د. خليل عبد المنعم خليل مرعي

٦٣- التـراث العمـراني للمدينة الإسـلامـيـة.

د. خالد عزب

٦٤- فراشات مكة... دعوها تحلق.. (رواية).

الروائية/ زبيدة هرماس

٦٥- مباحث في فقه لغة القرآن الكريم.

د. خالد فهمي

د. أشرف أحمد حافظ

٦٦- محمود محمد شاكر: دراسة في حياته وشعره.

د. أماني حاتم مجدي بسيسو

٦٧- بوح السالكين (ديوان شعر).

الشاعر طلعت المغربي

٦٨- وظيفية مقاصد الشريعة.

د. محمد المنتــار

٦٩- علم الأدب الاسلامي.

د.إسماعيل إبراهيم المشهداني

٧٠- الكِتَاب وصنعة التأليف عند الجاحظ.

د. عباس أرحيلة

٧١- وسائلية الفقه وأصوله لتحقيق مقاصد الشريعة.

د. محمد أحمد القياتي محمد

٧٢- التكامل المعرفي بين العلوم.

د. الحسان شهيد

٧٣- الطفولة المبكرة الخصائص والمشكلات.

د. وفقي حامد أبو علي

٧٤- أنا الإنسان (ديوان شعر).

الشاعر يوسف أبو القاسم الشريف

٧٥- مسار التعريف بالإسلام في اللغات الأجنبية.

د. حسن عزوزي

٧٦- أدب الطفل المسلم.. خصوصية التخطيط والإبداع.

د. أحمد مبارك سالم

٧٧- التغيير بالقراءة.

د. أحمد عيساوي

٧٨- ثقافة السلام بين التأصيل والتحصيل.

د. محمد الناصري

٧٩- ويزهر السعد (ديوان شعر).

الشاعر محمد توكلنا

٨٠- فقه البيان النبوي.

أ. محمد بن داود سماروه

٨١- المقاصد الشرعية للوقف الإسلامي.

د. الحسن تركوي

٨٢- الحوار في الإسلام منهج وثقافة.

أ. د. ياسر أحمد الشمالي

نهــر متعــدد.. متجــدد

هــذا الكتــاب

فقد وجدت أن الحاجة ماسة لدراسة تبين أصالة الحوار في الفكر الاسلامي، وأن مصادر التشريع، وهي الكتاب والسنة، أولت ثقافة الحوار عناية فائقة ليكون منهج حياة وأسلوباً حكيماً في التعامل بين الناس... فمن الواجب بيان منهج القرآن في الحوار وكذا المنهج النبوي، واستنباط أسس الحوار وآدابه، وبيان أثره في الدعوة والتربية والتعليم، وفي بناء أسس التعايش بين البشر، ثم إلقاء الضوء على معوقات الحوار وسبل التغلب عليها...

وتأتي أهمية التركيز على ثقافة الحوار لما لها من أثر بالغ في ترشيد الوعي، وترسيخ العقلانية، وأدب الخلاف...، وتعزيز المبدأ الذي ينص على أن «اختلاف الرأي لا يفسد الود والأخوة..»...



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية
www.islam.gov.kw/thaqafa